طيور لن تهاجر ثانية

طيـــــور
لن تهاجر ثانية

د. منال الدغـّار

للنشر والتوزيع
Arabic Library

اسم الكتاب: طيور لن تهاجر ثانية
اسم الكاتب: د. منال الدغار
تدقيق لغوي: مصطفى حسين
تصميم الغلاف: محمد سعد الشحات
الإخراج الفنيّ: جمال عبدالرحيم
الطبعة / الأولـى – 2020
رقم الإيداع: 13164/2020
الترقيم الدولي: 978 – 977 – 85721 – 7 – 9

arabiclibrary2017@gmail.com
almaktaba79@gmail.com
Facebook.com/arabiclibrary2017
01030365801 - 01014977934

جميع الحقوق محفوظة
للمكتبة العربية للنشر والتوزيع، ولا يجوز استخدام أي من المواد التي يتضمنها هذا الكتاب، أو استنساخها أو نقلها، كليا أو جزئيا، في أي شكل وبأي وسيلة، دون الحصول على إذن خطي من الناشر.

إهـــداء

إليك..

إلى الوهم الجميل..

والذي كان أجمل ما فيه أنه لم يتحقق..

إلى الكلمات الرائعة..

والتي كانت روعتها في أني لم أصدقها..

إلى طائر السحاب..

والذي انتظرته أن يعود يومًا..

فأثار الحنين في نفسي للسماء.

ولكنه لم يعد أبدًا..

فإليك أهدي..

"طيور لن تهاجر ثانية.."

قالوا عن تلك الرواية

جميلة.. مؤثرة.. فيها حبكة من الصفحة الأولى..

تقبض عليك حتى تنتهي من قراءتها..

براعة في وصف التفاصيل وكأنك تعيش بين أبطالها..

تشعر تمامًا كما لو كنت تعرف عائشة..

إنسانة تعرفها، وتفرح على مكافأة الله لها..

كاتبة موهوبة لا شك في ذلك..

سمية البدراوى..

(1) (مقدمة)

من أنا؟؟ تساءلت كثيرًا.. أأجيب عن ذلك السؤال، أم أترك لمن يقرأ تلك الكلمات الإجابة؟ ترددت، فلقد خشيت أن يأتي من يقول إنني فقط نتاج خيال مؤلف، تمثلت له في إحدى الليالي الشتوية.. فرسمني بقلمه دامعة، باكية، ثائرة، مرعدة.. في خلفية مظلمة لليلة باردة.. أو يأتي أحد فيقول: "بل هي قصة كآلاف القصص التي نراها حولنا في كل يوم.. قصة فتاة ضلت طريقها في ليلة باردة إلى البيت، وسارت لا تجد مخرجًا.." أو قد يظن أحد أنه يعرفني، وأني أتخفَّى تحت اسم مستعار.. أو... أو...ولكني أكثر من ذلك، إنني أنت.. نعم، أنت.. بيأسك، بضعفك، بكبريائك، بتحديك الأخرق للحياة.. بندائك الواجف للسعادة.. ستجدني في داخلك وكأني روح غامضة عشتها في جسد آخر في زمن ما.. إن كنت تؤمن بتناسخ الأرواح.. أتريد دليلا على ذلك؟؟ ليكن دليلي سؤالًا.. سؤال ما برح يقفز داخلي كلما تأملت الحياة من حولي.. لماذا منذ قديم الزمان يرتكب البشر الأخطاء نفسها، قصص الحب نفسها بتعبها وبحلاوتها المريرة..

الأمراض نفسها، والعجز المؤلم نفسه، والتمسك الأحمق بالحياة؟؟ كلنا نعيش في دائرة واحدة، حتى لتشعر أنه صار غريبًا أن يثير اندهاشنا شيء في الحياة.. وكأننا صرنا نعيش قصة نعرف منها البداية والنهاية.. ولكن لعل الفارق بيننا هو ذلك المتأمل في الحياة وذلك اللاهي عنها..

اعذروني إن كنت قد أطلت عليكم بأفكاري، ولكن دعني أنهي ترددي فأقدم لكم نفسي.. أنا عائشة.. عائشة هنا، هو أسمي وليس خبرًا في الجملة السابقة.. أقول هذا لأني وإن كنت أتنفس حقًا، إلا أني كثيرًا ما راودتني فكرة أني لست عائشة..! كثيرًا ما سيطرت عليَّ هذه الفكرة منذ كنت طفلة.. ولعل ما زاد وقعها عندي، هو كوني رومانسية، سريعة التحول كالطبيعة من حولي، ما بين شعاع الشمس الصافي، وهدير البحر الغادر.. كنت دوما أشعر في داخلي بشعور قلق، يجعلني أضعف من التمرد، وأقوى من الاستكانة لواقع كوني إمرأة.. لواقع كوني حبيسة جدران غريبة من تقاليد ونظرات وكلمات دون أدنى أمل في الحرية.. كم تمنيت لو حلَّقت طليقة، طليقة، بجوار السحاب.. أُلامس الشمس، ولكن يقيدني جسدًا ثقيلًا، وأناس حولي

لا أملك إلا أن أعيش قانونهم.. كثيرًا ما أحسست بتلك القيود حولي تضغط على روحي وتبعث دموعًا يائسة إلى عيني. أحرك رأسي يمينًا وشمالًا في يأس وإختناق، وأنا أتلهف على نسمة هواء تجدد روحي، وتجعلني أطير في سماء زرقاء لا حدود لها ولا نهاية.. تتخطى آفاق الدنيا وأحلام البشر لتحلق في حلم سرمدي مع الملائكة.. ودائما أفيق، وأنا مازلت في مكاني نفسه، وقد تقدم بي زماني، دون أمل في الحرية.. دائمًا أفيق وأنا أسمع نفسي أردد بمرارة هازئة: "أسمي عائشة!".. ولكن دعني أحكي لك كيف نبت لي جناحان، وكيف استطعت الهجرة بعيدًا، بعيدًا حيث... لا، لن أسبق الأحداث..

تم تغيير أسماء الأشخاص والمدن لحماية الأبرياء..

الأحداث من نتاج خيال المؤلف وأي تشابه في الأحداث

هو من قبيل الصدفة فقط..

(2)

لم يكن قد مضى عليَّ سوى بضعة أيام في إستراحة الأطباء التابعة للمستشفى الذي اتخذته لجنة الإغاثة الدولية (أطباء بلا حدود) مقرّا لها في ذلك البلد العربي الذي يعاني ويلات الحروب الأهلية.. كانت البلدة التي كنا فيها تسمى(تعزيز)، وكان يفترض أن تكون بعيدة عن خط النيران.. وإن كان هذا غير مضمون؛ بناء على الإقرار الذي وقعته، والذي كان شرطًا لمنظمة الإغاثة حتى يوافقوا على سفري معهم.. كان ذلك الإقرار يتضمن معرفتي أن حياتي قد تكون في خطر، وأني قد أتعرض لأي نوع من الإصابة.. كانت منظمة (أطباء بلا حدود) قد عرضت عليَّ المنصب وراتب مغرى بالدولار..

كنت طبيبة ثلاثينية، أتممت شهادة التخصص في الجراحة.. لم يكن السفر ولا الراتب هما دافعي للسفر.. كان أكثر ما أريده أن آخذ حقيبتي على كتفي، وأسافر إلى بلد لا يعرفني فيه أحد.. لا يرن هاتفي فيه.. أغرق فيه في التشتيت إلى الحد الذي ينسيني أشباحي الداخلية.. اقتلعت جذوري من بلد لم أعرف فيه يومًا إلا الألم.. سافرت ولم أنظر

ورائي.. ولم أحاول وداع أحد من الأهل والأصدقاء.. أحسست فجأة وكأني كرهت الإنسان.. لا، بل أكثر من هذا.. لقد كفرت بالإنسان.. صرت على يقين أن كل الشرور في الكون، الإنسان هو مبعثها.. وفي كثير من أفلام الخيال العلمي، إذ يقوم شرير الفيلم بمحاولة إزالة الجنس البشري، كنت أتعاطف جدّا مع منطقية هذه الفكرة. ولعل سببًا كبيرًا لنجاحي في عملي هو أني اتعامل مع بشر مخدّرين.. لاأعتقد أني كنت سأنجح في أي مجال آخر فيه تفاعل مع البشر.. ولا تحدثني أرجوك عن المهنة السامية.. كنت أمارس الطب لأني جيدة فيه.. وهذه هي نهاية القصة.. ولم يساعدني الإتجاه الذي أخذته في مهنتي بعده، كطبيبة في منظمة (أطباء بلا حدود) في جعلي اؤمن أكثر.. بالعكس.. بل رأيت من آثار الحروب والقبح، ما جعلني ازداد كفرًا بالإنسان وبجدوى الحياة.. أراك تسألنى والدهشة تملأ ملامحك، لمَ استمريت في هذه المهزلة التي تسمى الحياة إذن..؟ عجبا.. يبدو أنك لم تركز معي منذ البداية.. إنني (عائشة)!!..

سافرت كثيرا.. قمت بالعديد والعديد من العلاقات السطحية.. لم أحاول أبدا تعميق أية علاقة.. لم أحاول أبدا الإستقرار في مكان، أو شراء منزل، أو تربية قطٍّ.. لم أقتنِ العديد من الأشياء.. كل ممتلكاتي فى هذه الحياة استطيع حملها في حقيبة ظهري.. لقد عشت متوحدة، فلا رفيق يؤنس وحدتي، ولا اتشارك أخباري مع أسرتي.. وعلى الرغم مما قد تحويه غرفتي من أسباب التسلية والبهجة، فقد كنت أهجرها كما لو كان يسكنها الجن والشياطين، وأنشد الحركة كيفما كانت، وأينما أجدها.. لأني كنت أفزع من الوحدة.. أفزع منها.. فحتي لو عكفت على القراءة، فكنت أقرأ في سرعة محمومة، كأنما عليّ أن أقرأ وليس أن أفهم ما أقرأ.. فحين يفتقر الإنسان للحب فإنه يستعيض عنه برحمة الذات للذات، وهذا ما كنت أفعله.. فإنها على كل حال خير من لا شىء..

وكانت تلك أيامي الأولى في بلدة (تعزيز).. مازالت طبيعة المهمة غير واضحة.. ولا أهتمُّ.. ولكن تغيير المكان لم يكن السبب الذي جعلني استيقظ فجأة من نومي، والظلام يكسو كل شيء.. أقول

هذا لأني اعتدت أن أنام في أي مكان، ولو كانت حافلة متحركة دون أي اهتمام بالضوضاء من حولي ولو كنت تعبة.. لذا حاولت أن أسكت ذلك النذير الخفي الذي انطلق من داخلي وأعود للنوم، لولا أن انتصب جسد أمامي فجأة، وكأنه وُلِد من قلب الظلام.. اتسعت عيناي في ذعر، حاولت أن أصرخ لولا أن أحسست بيد قاسية على فمي تمنعني، وصوت بارد يقول:"لا تصرخي وإلا".. ولوّح بسكين رأيت وميضه في الظلمة.. وعلى الرغم من الإرتعاشة القاسية التي احسستها في معدتي، إلا أني وجدت القدرة لأن أومئ برأسي علامة للموافقة.. فأحسست بيده تترك فمي في بطء، وهو يدير الضوء الخافت بجوار الفراش ويقول: " ستأتين معي الآن.. لا حركة ولا مقاومة.. الآن!! تحركي.. ارتدي ملابسك، وخذي معك كل معداتك".. وجدت صوتي أخيرًا، وأنا أتأمل ذلك الجسد المتشح بالسواد أمامي، بعينين يقفز منهما الفزع وأنا أقول:" من أنت؟؟"

قال:" ليس الآن.. ارتدي ملابسك حالًا..لا وقت لدينا"..

قلت: "استدر"..

قال غاضبًا:" لا يوجد وقت لتلك السخافة، أمامك دقيقة واحدة، بعدها سأحملك بقميص النوم"..

احسست بالحنق يتصاعد من داخلي كلما ازدادت لهجته الآمرة، ووجدت نفسي أقول بإندفاع ولامبالاة: "حسنًا!! اقتلني".. ثم عاد الخوف يسيطر عليَّ ثانية عندما رأيت الغضب يتصاعد على وجهه، وعينيه تزداد قسوتهما وهو يتجه إليَّ.. وقبل أن أستطيع الحركة أو الفرار أصابتني لطمة عنيفة غيبتني عن العالم.

*****

عاد إليَّ الوعي فجأة في صورة صدمة عندما وجدت رأسي تغرق تحت المياة الباردة.. شهقت بعنف عندما جذبتني يد قاسية من شعري إلى الهواء ثانية.. واحسست بكف تربت على وجهي بقوة، فتحت عينيّ، ووجدت صاحب العينين القاسيتين لا يزال أمامي.. فأغلقت عينيّ في ذعر وأنا أتساءل عن نهاية ذلك الكابوس، ولكن يداه أخذتا تهزانني بقوة وهو يقول: "أفيقي الآن وإلا سأرميكِ في ذلك النهر"..

فتحت عيني وسألته بصوت مرتجف: "من أنت؟ وماذا تريد مني؟؟"

قال وقد علت فمه ابتسامة مريرة:" أنا لا أحد، لا هوية، ولا وطن، ولا ثمن.. ضاع إسمي مني عندما ضاع وطني.. أجرَّبت ذلك الشعور من قبل؟ أن تكوني لا أحد؟؟ لا اعتقد.. أما ما أريده.. فهو أن تنزلي من عليائك من مقر الإغاثة الدولية المزعوم، لتري الجرحى الحقيقيين الذين يموتون تحت الأنقاض وبشظايا القنابل.. أريدك أن تتحركي وتنقذي الجريح عندما تصيبه الرصاصة، لا أن تنتظري حتى يصل إليك وتكون قد قتلته.. أريدك أن توقفي الألم قبل أن يذهب بالعقول.. أريدك أن توقفي الصرخة قبل أن تقطع أوتار الحنجرة.. أريدك أن تقومي بمهمتك التي جئت لأجلها..لا أن تجلسي في حجرة مكيفة الهواء وتكتب الصحف عن مساعدة الأمم المتحدة لأهل (تعزيز).. أتستطيعين؟؟"

أخذ رأسي يدور بعنف، وأنا أحدق في وجهه وأقول بصوت خنقته الدهشة: "وحدي؟؟"

قال وقد علا اليأس وجهه: "ساعديني، إني عاجز أمام الألم ..أرى صديقي يسقط بجانبي وأنا عاجز عن أن أمد ساعدًا لإنقاذه.. ساعديني"..

قلت: "ولم لا تنقله إلى المستشفى؟؟"

قال بعد ضحكة ساخرة: "لأن هذا المستشفى تابع للحكومة الظالمة نفسها التي نبغي إسقاطها.. ولا يمكن أن ندخل عرين الأسد بأقدامنا"..

نسيت ساعتها ذلك الألم النابض الذي احسسته في جانب وجهي، وقد شعرت أنه بدأ في التورم من جراء لطمته وأنا أسأله: "ولمَ أنا؟؟"

قال:" لست أدري لمَ أنتِ؟؟ وكيف وقع اختياري على نافذة حجرتك، إنه تعقيد لم أتوقعه، فلم أكن أعرف أنهم يقبلون النساء، ولكن لم أستطع بعد أن دخلت حجرتك أن اغامر بالخروج وإختيار حجرة أخرى.. أعتقد أنه القدر.. القدر نفسه الذي جعلني الآن في وسط الليل بجوار نهر، غارقًا في الوحل وبيدي سكين، بدلًا من أن

أكون أي شخص آخر، في أي مكان آخر على سريره يحلم.. إنني لم أختر ذلك المشهد، ولكنك اخترت المجيء للجحيم.. لست أدري لماذا؟ ولست أهتم.. ولكنك ستساعديني شئتِ ذلك أم أبيتِ..

*****

كنت أمشي معه وسط خرائب ومبانٍ مهدمة.. أشجار جافة، حزينة تراقبنا في صمت.. مشيت صامتة، وأنا لا أدري إلى أين يأخذني، حتى وجدته عند منطقة معينة يطلق فيها صفارة خافتة للغاية، ولدهشتي وجدت آخر يجاوبه.. ثم أخذت الأنقاض تتحرك ويظهر من خلفها أناس.. وقبل أن أفيق من دهشتي وجدته يقول لي بحدة: "من هنا، سندخل الآن، ولكن يجب عليكِ أن تعلمي جيدًا أنه غير مسموح لكِ بمغادرة هذه الحدود دون مرافق.. أيًا كان ما تطلبينه سنحضره إليك.. ولكني لا أستطيع أن اغامر بكشف مكان مقرنا السري، إما عن طريق الرعونة أو الخيانة من جانبك.. أعرفي أني سأراقبك بنفسي، وعند أول بادرة للخيانة أو الإهمال لن يكون لحياتك ثمن.. أتسمعين؟؟"

تصاعد الدم الحار إلى وجهي، وأنا استمع إلى لهجته المهددة، وبكل الغضب داخلي، رسمت إبتسامة متحدية على وجهي وأنا أجلس على حجر مرتفع وأرفض السير..دون كلمة..

فقال بدهشة: "لمَ جلستِ؟؟ (ثم بتهديد أكثر) تحركي وإلا"..

فانفجرت في وجهه قائلة: "وإلا ماذا؟؟ هل ستضربني؟؟ هل ستقتلني؟؟ (ثم ضحكت ساخرة وأنا أقول:) يالك من ساذج، أظننت أحدًا يأتي إلى الجحيم وهو يخشى لسع النار؟؟ أتظن أني أخشى الموت؟؟ هيا، لم لا تحاول وسترى كيف استقبله بإبتسامة ساخرة.. أتظن أني ما زال بداخلي ما أخاف عليه؟؟ يالك من مغرور ساذج.. إني لا أهتم بقضيتك، فما كانت السياسة بالنسبة لي إلا لعبة مهرجين حمقاء.. ولست خائفة منك، إني لا أهتم إن ذهبت يمينًا أو يسارًا، كلاهما يتساويان عندي.. لقد هاجرت من بلادي إلى هنا كي اساعد أناسًا يحتاجونني، إذ يد مساعدة تحدث فارقًا.. ولهذا أيضًا لن أتحرك خطوة واحدة، إلا إذا تلقيت معاملة إنسانية واحترامًا يرضيني.. إنك أنت من تحتاجني، لا العكس.. (ثم رفعت صوتى ثائرة) إني لا أهتم

بأيكم مخطئ وأيكم على حق، ولا يهمني المتمرد من الحاكم.. إن ما يحركني فقط هو إنسان يتألم، أيًا كانت عقيدته أو لونه.. فلقد أقسمت أن اتحدى الألم.. قد لا استطيع أن أهزمه دومًا، ولكن يرضيني أن احاول بأقصى طاقة لي.. ولهذا لم يتهمني أحد بالإهمال قبلًا وأني"....

-فقال (مقاطعا): "توقفي عن هذه الثورة.. إنك على حق، وها أنا ثانية أطلب منك بكل هدوء أن تتفضلي بالدخول، والتكرم بمساعدتنا"..

وعلى الرغم من أني سمعت نبرة سخرية خفيفة في كلامه، إلا أني اكتفيت بذلك النصر البسيط عليه، فرفعت رأسي في كبرياء وتقدمته إلى الداخل..

(3)

جلست ساهمة على حجر وأنا أريح ظهري المتعب على جدار مهدّم خلفي.. ومن خلف جفنيَّ المسدلين أخذت اتأمل ما حولي، بقايا الحياة وآثار الموت ورسائل الخشب المحروق.. كنت دَهِشَة أكثر مني تعبة.. فعلى الرغم من سنوات عمري، إلا أنني يبدو لا يزال أمامي سفر طويل، وأيام أطول قبل أن أستطيع التوقف عن الدهشة.. قبلًا لم يكن لديّ وقت لأتساءل لماذا..؟؟ فلقد كنت أعمل بهيستيرية مجنونة.. وأنا أطلق الأوامر والإرشادات يمينًا ويسارًا، ونحن نحاول إنقاذ الجرحى، جمدت كل مشاعري، وأنا أرفع صوتي كي يعلو على الإنفجارات حولنا، وصوت نبضات قلبي المتسارعة.. كنت أرى رجلًا بُتِرَت ساقه أو ذراعه، وهو يبكي بدموع مقهورة، عاجزة.. عندما احاول أن أوقف نزيفًا بأصابعي العارية وبأقل الإمكانيات.. كنت كأني احاول أن أسبق الموت الذي يقف في كل مكان متحديًا.. ولكن الآن.. الآن وقد هدأ كل شيء.. وناموا جميعًا.. رفعت رأسي إلى السماء، فرأيت.. رأيت القمر.. وبدون مقاومة، أو حتى أن احاول،

احسست بالدمع الساخن يتجمع في عيني...يتسلل.. يسقط.. أهذا هو القمر نفسه الذي كنت أشاهده فى بلادي؟؟ أهذا هو القمر الذي كان يسمع دعاء الطفلة، وأحلام المراهقة، وتنهيدة المحبة، وبكاء المتألمة؟؟ كيف؟؟ أحسست أن ما رأيته في ليلة واحدة لن تبرأ منه نفسي عمرها.. لم يكن جديدًا عليّ أن أغرس يدي في دماء، أو أن أشاهد جروحًا أو أرجلًا محطمة أو حتى موتى.. ولكن ما هزني حقًا هو الفارق الرهيب.. فإن من مات هنا لم يمت في حادث، أو قضاءًا وقدرًا...بل كان عمدا أن أطلقت يدٌ باردة الرصاص.. عبثية الموت هو ما هزني من الأعماق.. كنت اعتقد أن طوابير الإعدام، القتل العشوائى، والقبور الجماعية هي مجرد خيالات كاتب مريض.. كنت اتوهم أن القنبلة الذرية أو الحروب هي من أخطاء التاريخ التي لن تتكرر، ولابد أن تكون البشرية قد تعلمت شيئًا.. ولكن الآن، وقد رأيت- ولا أعتقد أني رأيت كل شيء- بعد كل هذا التشويه والدم والقتل، اختلط كل شيء أمامي.. وأنا مازلت لا أدري لماذا؟ وكيف؟ ولكن سيظل أمام عيني كل ذلك القتل، وأنا لا أدري له تفسيرًا كافيًا..

انتزعني من أفكاري تلك صوتٌ مفاجئٌ خلفي، أفزعني هذا، وجعلني استدير بحدة، ثم أهدأ عندما رأيته.. الرجل نفسه الذي أحضرني إلى هنا.. كنت الآن أعرف إسمه..(منذر)..

كان اسمًا يتفق تمامًا- في رأيي- مع طبيعته العاصفة.. أشحت عنه وجهي وأنا اتذكر نظرة الإستهزاء والتحدي التي ظللت أراها في عينيه طوال اليوم، على الرغم من أني بذلت كل طاقتي.. لقد فكرت أن أناقشه في هذا، ثم تراجعت. ماالفائدة؟؟ إنه يبدو وكأنه يحمِّلني ذنب ما حدث لبلاده، وكأني المسئولة عن سلبية العالم.. أحسست به يذكرني بالقسوة والإستهزاء اللذين هربت منهما طوال عمري.. "مَن تظنين نفسك..؟" وكرهت تلك الذكرى، وكرهته لأنه يوقظها داخلي، بمجرد وقوفه بجانبي حتى وهو صامت.. أحسست به يضع شيئًا في يدي، نظرت إليه، فوجدتها قطعة من الخبز والجبن.. إمتنان غريب غمرني، فاستدرت إليه لأول مرة كي أشكره، وأنا أشعر بمعدتي تتلوى من الجوع.. وأنا اتذكر أني لم آكل شيئًا منذ الأمس.. ولكن طالعتني نظرة السخرية نفسها في عينيه وهو يقول بإستهزاء: "إنها بالطبع

ليست كالأطعمة الفاخرةالتي اعتدتِ تناولها في مقر الإغاثة، نعتذر عن هذا"... شحب وجهي لذلك الهجوم المباغت، احسست بيدي ترتعش، وأنا أحدق غير مصدقة في إبتسامته الهازئة.. أحسست بعاصفة غاضبة تتجمع داخلي، وكل ما فعله معي يصدمني ثانية.. فزعي منه، لطمي، إختطافي، تعبي الرهيب بعد كل ذلك العمل الشاق.. البرودة القاسية التي تلف جسدي الذي لا يغطيه إلا معطف خفيف فوق ملابس النوم؛ هببت واقفة، كنت غاضبة.. نعم، ولكني كنت أعلم أني لن استطيع أن أفعل شيئًا.. لن استطيع أن أنفذ تهديدي الذي قلته سابقًا بتركهم.. ليس بعد ما رأيته، لن أستطيع.. ألقيت عليه نظرة طويلة، حمّلتها كل كراهيتي له، واستدرت وذهبت حيث ينامون جميعًا.. تاركة إياه واقفًا دون أن أمنحه حتى كلمة واحدة.. انزويت في ركن على الأرض، ألف جسدي بيدي، وأدفن وجهي بين ذراعي، أحاول أن أقاوم البرودة.. وفجأة، أحسست بدموعى التي حاولت أن أكتمها أمام ذلك المستبد، تنفجر مني في تشنجات عنيفة.. تهز جسدي في صمت، وأنا أعض على شفتي في قسوة لأمنعها من الانطلاق حتى

لا أوقظ من حولي.. كنت أشعر بكل ما في داخلي يصرخ: "لماذا جئت إلى هنا..؟ وإلى متى ستهربين..؟"

وبينما أنا على هذه الحالة من الضعف، أحسست بغطاء يلقى عليَّ.. لم أنظر، فلقد كرهت أن يراني أحد وأنا على هذه الحالة من الضعف.. ولكن صوته وصل إليَّ خافتًا: "أعلم أنك تكرهينني، لن أستطيع أن أقول لك ألا تفعلي ذلك.. ولكني لن أطلب منك السماح." ثم استدار وذهب، ولم أنظر.. بل وحتى لم أستطع أن أفكر في عبارته الغريبة، فلقد أتاني النوم أخيرًا، وأحسست به يلفني معه في عباءة ناعمة، حمّلتها عبء همومي.. ونمت..

*****

لست أدري كم من الوقت انقضى وأنا نائمة، ولكن فجأة سمعت صوت صرخة عالية اخترقت كل أحلامي، وجعلتني أنهض مرتجفة وأنا أدير عيني حولي، احاول أن اتذكر مكاني، ثم عاد إليَّ الواقع فجأة، فهرعت مسرعة إلى مكان الجرحى، وأنا اتعثر في الأحجار المحطمة في الظلام، حتى وصلت إلى هناك حيث وجدت أمرأة تبكي بحرقة على

جسد ضئيل.. ورأيت ذلك الغريب القاسي وهو يحيط كتفيها بحنان محاولًا تهدئتها.. أسرعت إليهم، جعلته يتنحى جانبًا- أعترف بشيء من القسوة- ولكنه لم يعترض، ووجدت الطفل الجريح وقد قام بتمزيق ضماداته لينزف حتى الموت.. لم يكن هناك ما استطيع عمله، فرفعت رأسي إليهم، وآلمتني نظرة الأمل في عينيهم كأنهم ينتظرون معجزة.. فأشحت وجهي بعيدا وأنا أقول: "من الأفضل أن تحملوه خارجًا".. ثم مددت يدي فأغلقت عينيه، فما عاد يحتاج مساعدة أحد من البشر.. ثم مدّدت يدي وأخذت المرأة معي وهي ماتزال تنتحب، محاولة إبعادها عن رؤية ذلك المنظر.. واستسلمت المرأة تمامًا لي وهي تحت تأثير صدمة فَقْد من تحب.. أخذتها إلى الركن الذي كنت أنام فيه، وغطيتها بالغطاء القديم، أسندت رأسها إلى صدري وهدهدتها حتى نامت، ودموعي تتكاثف، تتجمع، تتساقط على شعرها وأنا حتى لا احاول مسحها.. أردت أن اواسيها، اعتذر لها، احاول أن أفسر ما حدث.. ولكني لم استطع، لم أجد كلمات.. ولفنا الظلام وهي مستكينة بين ذراعيّ، وجاءنا النوم شاهدًا على آثار الدموع على وجهينا..

ابني.. لقد مات ابني وحيداً وسط الوديان، ولكني واثقة أنه حين توسد الكلمات الكبيرة، بدلا من الوسادة، وجاءته لحظة الموت، صاح "أمي" ولم يقل "وطني.."

4

مع نسمات الصباح الباكر أحسست بيد توقظني في رفق.. فتحت عيني ببطء فوجدتها هي-تلك المرأة التي قضيت الليل بجوارها- ولدهشتي وجدتها تبتسم إبتسامة ضعيفة -تتناقض مع عينيها التي ظللها السواد- وهي تقول: "أنا (إيتاء).. وأنت؟"

قلت: "إسمي(عائشة)".. أجبتها وقد أنستني الدهشة المرارة الهازئة التي اعتدت أن أردد بها إسمي.. فلقد رأيت أمامي - ولأول مرة- من أَنْسَتْني آلامي وأنا أرى شجاعتها تنتصر على أحزانها، ولو بإبتسامة ضعيفة.. وجدت يداها تتناولان يديّ في رفق، وهي تسير معي كي تريني المكان.. كنا نسير وسط المنازل المهدمة والأشجار المحروقة والجرداء، كنا نعبر بحرص على كثير من الصخور المكوّمة، والتي كانت تخفي ببراعة العديد من المخابىء.. وبين هؤلاء وهؤلاء تناثر العديد من الأشخاص الذين كانت تتراوح تعبيرات وجوههم بين الإجهاد واللامبالاة، أو الحذر وهم يراقبوننا في صمت..

تجاهلتهم وأنا أقول (لإيتاء): "أخبريني كيف بدأت تلك الحرب الأهلية عندكم؟"

قالت (بابتسامة ساخرة): أهلية..؟ ما أكثر ما تقلب الصحف الحقائق.. إنها يا عزيزتي لم تكن أبدًا حربًا أهلية.. لقد اشترك أبناء هذا البلد وأهله في كل الظروف القاسية والحياة الصعبة والتراب الغالي، لم يكن ممكنًا أبدًا أن ينقلبوا وحوشًا ينهشون بعضهم بعضًا.. إن حكايتنا تتلخص في وجود أسرة كبيرة تحكم البلاد، حكمًا ملكيًّا منذ العديد من السنين -أكثر من سنوات عمري نفسها- وسارت أمورنا معهم من سيء إلى أسوأ، وهم يتحكمون في مصائر وأرزاق أهل البلاد بعد أن صارت تلك البلد مجرد (عزبة) خاصة بهم.. كان بإمكان ذلك القهر أن يمضي للأبد، وأن نبتلعه ولو غُصّت به حلوقنا -كما حدث بالفعل لسنين عديدة- لولا أن قلب عاملان حياتنا رأسًا على عقب"..

قاطعتها قائلة:" ما هما؟؟"

قالت: "أولهما، أطفالنا.. فلقد تفشى فيهم وباء قاتل، وساعدته حالة الفقر والمجاعة، فوجدنا عديدًا منهم قد سقطوا بين أذرعنا، إما

موتى وإما مصابين بإعاقات مختلفة، ولك أن تتخيلي جنوننا، ونحن لا نجد لهم علاجًا، بينما حكامنا يعيشون في القصور الفاخرة التي تحجب عنهم رؤية الموت وسماع صرخات التضرع.. تخيَّلي ما أحسسنا به ونحن نرى أطفالنا يتساقطون كالفراش المحترق أمام لهب قوي.. أحسسنا أنهم يريدون إبادتنا، أحسسنا أنهم يضيّعون آخر أمل لنا، يحطمون الشعور الوحيد الجميل في حياتنا، إذ نرى بسمة أطفالنا.. ولن أتكلم عن الجوع أوالجهل أو الفقر والمرض، فلقد صار أي وضع خلاف ذلك رفاهية من حق حكام ذلك البلد فقط..

فسألتها، وأنا أكاد لا أصدق ما يحدث وقرن جديد من الحضارة يطل على الدنيا: "وماذا عن العامل الثاني؟"

قالت (وقد أطل الحنان من عينيها، وَلَان وجهها الذي قسّته الذكريات): "مُنذر"..

علا الاقتضاب وجهي قبل أن أستطيع منعه، وأنا أقول بصوت جاف رغما عني: "كيف؟ "

قالت (وقد لمحت الضيق الذي حاولت -عبثا- إخفاءه): " لعلك لا تدرين، إن (منذر) هو أخي بالتبني، كان والده من كبراء هذا البلد، ولكن عندما حدثت تلك الأزمة الأخيرة -أزمة الوباء الذي أطاح بأطفالنا- رفض أن ينضم للحاكم الظالم، وصار يتحداه علنًا طالبًا من الحكومة توفير العلاج والأمصال اللازمة.. تلقَّى عديدًا من التهديدات ولكنه لم يُردع.. وفي يوم كان (منذر) في زيارة لأحد أصدقائه، وهو لم يزل في الخامسة عشر، وعندما عاد وجد المنزل كتلة من النيران.. لم يستطع أحد الاقتراب من المنزل من شدة النيران، وعندما انطفأت، وجدناه جاثيًا على ركبتيه أمام المنزل المحترق، وقد غاب عن وعيه من كثرة إستنشاقه للدخان، حمله أبي إلى منزلنا حيث اسعفناه، ومن يومها عاش معنا كأخي وكان زوجي- رحمه الله- (قالتها وقد تكسر صوتها)، من أعز أصدقائه"..

أحسست بألمها فضممتها إليّ وأنا أقول:" لا تحجبي دموعك داخلك يا عزيزتي، أبكي"..

قالت (وقد أشرق وجهها ودمع بعيد يلمع في عينيها): "لا تظني أني أخشى دموعي، أو أخجل منها، فقط لم يحن وقتها، لقد علمني (منذر) ذلك"..

عندما أفاق ذلك اليوم نظر في وجوهنا طويلًا، وقال (وصوته يخرج مختنقًا من حلقه): "يأتي البكاء بعد الإنتقام، لن أنام هادئًا بعد اليوم، حتى أمشي في طريق لا ينازعني أحد فيه في عقيدتي أو رأيي وآمالي"..

منذ ذلك اليوم صار جادًا، قاسيًا كالأسد الهائج، كان هو الشرارة التي أيقظت نار الثورة في القلوب، وهو يجمع الرجال والطوائف المختلفة خلفه، وهو ينادي بحكومة عادلة تقوم من بيننا وتعبر عنا.. إني أحكي لك هذه الحكاية فقط كي تسامحيه على طريقة إحضارك، فلقد شنوا علينا الحرب، وكنا نفقدعديدًا من الرجال يوميًّا لعجزنا عن مساعدتهم"..

قلت (في دهشة): "ولكنكم أقلية، ماذا ستفعلون أمام أسلحتهم الحديثة؟"

قالت: "لسنا أقلية، إن عددنا يزداد كل يوم، قد يحتمل الإنسان أن يصفع على وجهه، ولكنه يتمنى الموت قبل أن يُؤذَى أحد أولاده، أما عن الأسلحة، فإن عديدًا من الجهات تتولى مساعدتنا وإمدادنا بها عن طريق اتصالات (منذر) الكثيرة وعلاقاته"..

فقلت: "لقد جئت هنا لأساعدكم، وحتى إن كانت طريقة إحضاري خاطئة، فلقد حققت هدفي وهذا ما يهمني.. ساعديني كي نهيئ المكان كي يكون مثاليًّا لشفاء الجرحى"..

*****

(من كتاب الموتى)

رأيت شيخا وقد أحنت الأيام ظهره، يجلس بجوار فراش به جسد ساكت، صامت.. والشيخ يمسك بيد ابنته، والدموع تمر بصعوبة في أخاديد وجهه.. أخذت دموعه تهطل كأمطار الشتاء الحزينة، وقد خيّم على الحجرة صمت القبور، لا يقطعه إلا صوت بكائه المحرق وآهاته المؤلمة.. كان يقول: "ابنتي..ردي عليَّ.. حقيقي أن خلال حياتك كنت أفضّل أخوتك الذكور عليك.. وأعطيتهم خيرُ ما عندي.. ولكنك تعرفين ثقافتنا العفنة، والتي ترى المرأة زيادة وعبئًا.. وخاصة في الظروف التي نعيشها.. ولكنك كنت دومًا قوية، في وحدتك قوية.. وفي ضعفك قوية.. أم لعلى كنت لا أرى.. خلال شبابي وقوتي لم أرَك.. والآن، عندما مرت السنون، وتركتْ آثارها الثقيلة عليَّ، رأيتك أخيرًا.. رأيت وجهك والدموع تنساب عليه في سهولة من سلك الطريق طويلًا.. لقد قضيت عمري كله أهرب من أطول رحلة.. من رحلتي إلى الداخل.. وها أنا الآن، أواجه نفسي بكل ما تحويه من قبح وقسوة.. نعم، لقد واجهت نفسي أخيرًا، ورأيتك

عارية، متجردة، وحيدة في ظلام ثقيل.. من حولك تكسرت أغصان الزيتون التي طالما رويتها بدموعك.. لقد كنت تاجر سلاح.. وكنت أعطي نفسي ألف مبرر للإستفادة من الأزمة الحالية.. كنت أغضُّ الطرف عن آلاف الجثث وأشباح الظلام التي تعدو وتنثر الموت والهلاك في كل مكان حولنا.. كان طبيعيًّا أن يأتيني الموت حتى باب بيتي.. رأيتهم يقتحمون المنزل ظنًّا منهم أني أملك الكثير، وإن أبنائي الذكور ليسوا بالبيت.. رأيتك وأنت تحاولين الدفاع عني، والطعنات تنهال عليكِ من كل جهة، ومن قسوة الألم أصبحت عاجزة عن الاستغاثة.. أرى الآن بعد أن أصبحت كهلًا ضريرًا ما فعلتُه بكِ.. أراك الآن، وأكاد أنكر ما أرى.. أرى أمامي أشلاء دامية وبركة من الدماء والدموع.. لا أكاد ألمح فيكِ من صورة الأمس الجميل إلا في تلك العينين اللاتي تنظران إليَّ الآن في مرارة وألم واستسلام.. إنني لا استطيع أن أطلب منك المغفرة، فلم تعد بكِ قدرة عليها وإن أردتُ.. إنني حتى لا استطيع أن أسمع صوتك للمرة الأخيرة؛ فلم يعد منك غير عينين شاخصتين إلى عالم آخر غير الذي نحن فيه، عالم تجدين فيه

من الحب والسلام ما لم تجديه في قلبي، الذي لم يعرف طريقه إليكِ إلا بعد فوات الأوان.. والآن، وأنا أمدُّ يدي لأحتوي كفك للمرة الأخيرة، أرى في يدي دماء من كفيك لن تزول مادام الدهر.. ستبقَى دائمًا لتذكرني أي أبٍ عاق كنته، وأي ملاك جميل كنتِ أنتِ.. وكيف تكسرت أجنحتك بعد أن طليتها بنفسى بالسواد.. ودفن رأسه في كتفها وأجهش بالبكاء..

*****

5

أخذت الأيام تمر، وأنا معهم لاهثة، تعرفت إلى أساليبهم وطريقة حياتهم.. كان النظر إليهم كافيا كي يزول كل تعبي، وأنا أرى كيف يقاومون، يحبون، ينجبون وكأنهم يتحدون الدنيا والأيام، ويصرون على الانتصار عليهم..

قرأت يوما في كتاب (الإنسان يبحث عن معنى- لفيكتور فرانكل).. إنه عندما وجد نفسه في أحد المعسكرات الرهيبة للاعتقال، متجردًا، عاريًا، وقد فقد كل أسرته، وكل قيمة قد تحطمت وهو يعاني الجوع والبرد والقسوة، سأل نفسه لماذا استمر في تلك الحياة..؟ ووجد أن المعاناة أو الضغط النفسي قد تخرج من إنسانٍ أبشعَ ما فيه، وتخرج من آخر أحلى معاني الإنسانية.. إنها في النهاية مسألة إختيار.. تذكرت هذا وأنا أتأمل حياتهم، وتذكرت عندما قلت سابقًا أني كفرت بالإنسان.. لم أعد بصلابتى نفسها في رأيي السابق.. لا، لم أرهم ملائكة.. ولكني رأيت الإنسان في أحلى وأضعف صوره.. لقد مستني تلك التجربة من الصميم، وكأني اغتسلت من حياتي السابقة، وما

عدت أذكرها..عرفت عديدًا منهم، وكان (لإيتاء) الفضل في ذلك، إذ لم تترك جانبي من يومها.. وكان لديهم تقليد غريب.. إذ كانوا يجتمعون أسبوعيًا ليسجلوا في(كتاب الموتى) من فقدوه منذ بدأت الحرب.. كانوا يخشون أن يصير الموتى لديهم مجرد أرقام.. وكان الدور هذا الأسبوع على (غسان) ليحكي حكايته ويتم كتابتها.. وجلست وسطهم صامتة، مبهورة، استمع..

(من كتاب الموتى)

"ما أغرب هذه الحياة، وما أقسى عبث الأقدار بالبشر.. وكأن مصيري ليس إلا ورقة شجر تلعب بها ريح عابثة.. لا تتركها في إستقرار حتى تنتزعها من مأواها، فتصفر أطرافها ويتجعد سطحها.. قضيت حياتي مكافحًا، وحفرت سِنِين الغربة ملامحها على وجهي.. فأنا - لمن لا يعرفني- مهندس، أو كنت كذلك.. وتعرفت إليها في الخارج- زوجتي- وظننت أن الله يريد لي رفيقًا يمحو آلام الغربة عن نفسي.. لقد كانت ألمانية، ولكنها لم تشعرني أبدا أنها غريبة عني.. ولم يطل الوقت حتى رزقنا الله ملاكًا جميلًا، كانت شقراء وعينيها بلون

السماء.. وأحسست أني الآن قد ملكت كل شيء.. واتخذت قرار العودة إلى هنا.. كنت أريدها أن تتعرف إلى بلادي، وما كانت الأوضاع بهذا السوء الذي نراه الآن.. عدت إلى هنا وأسست شركتي الهندسية الأولى، وبنجاحي في عملي، وعائلتي بجواري، أحسست وكأني ملكت الدنيا.. بدأت الظروف في البلد تختلف، ولم أقلق كثيرا لاعتقادي أن بلدتنا (تعزيز) بعيدة عن خط النار، وكان امتلاكي الأموال يذلل عديدًا من العقبات.. وفي يوم، تأخرت قليلًا في العودة، كانت أمي وزوجتي بانتظاري، تعدان لي مفاجأة بمناسبة عيد ميلادي، وابنتي الرقيقة تتراقص حولهم كأنها عصفور رقيق.. كان لديّ موعد معهما، وأعد القدر لهن موعدًا آخرًا.. وعندما دخلت إلى المنزل، التفتا إليَّ وفي أعينهما الباسمة سؤال.. وقبل أن استطيع الإجابة، لست أدري ما حدث، فقد إرتجت الأرض من تحت أقدامنا، فأسرعت إليهم لأحتضنهم وانكفينا جميعًا على الأرض.. مر وقت لا أعرف مقداره، وعندما عدت إلى رشدي، وجدت نفسي ممددًا في مكان ضيق، كنت عاجزًا عن الحركة، بالكاد يد واحدة تتحرك، وكنت آخذ نفسي

بصعوبة.. نظرت حولي فوجدت أمي وزوجتي وابنتي تحت الأنقاض.. طلبتِ مني يا أمى أن أسقيك، وصعدت روحك إلى بارئها، وأنا أبكي في عجز، وأنا اتذكر حبك وحنانك الذي لا يضاهيه شيء.. واتذكر نظرتك اللائمة عندما كنت أتركك واسافر، واتذكر فرحتك بابنتي، وإعلانك أنك أنتِ من ستتولين تربيتها.. وتذكرت نفسي وأنا طفل صغير وأنتِ تتظاهرين بالصرامة، ويفضحك الحب في عيونك.. وكان كفُّ زوجتي في كفي، وكانت تتشبث بي بقوة كالغريق، وأنا أشد على يدها مؤكدا قرب النجاة.. وفجأة! أحسست بكفها تتراخى.. وأحسست بالدموع تحرق عيني، وهي تختلط بالتراب.. لقد فقدت أمي وزوجتي في الساعة نفسها.. فقدت رفيقتي وزميلة كفاحي، من كانت تفهمني دون أن اتكلم.. ولكنها ماتت.. سالت دموع القهر من عيني.. والتفت إلى ابنتي وصممت على أن أهبها روحي.. بيدي السليمة خطفتها إلى جواري، فطلبت أن تشرب زجاجة مياة غازية.. ثم ابتسمت.. وماتت.. حدّقت في جسدها البارد الملقى إلى جواري، وأخذت أصرخ وأصرخ وأصرخ، لعل صراخي

يوقظ الموتى.. لقد نويتُ يوم ولادتها أن يكون لديها كل شيء.. ولكني كنت مثل من يهب مالا يملك.. تمنيت لو لم أعرفكم في حياتي.. تمنيت لو لم أعرف كل هذا الحب والحنان ثم يسلب مني بهذه القسوة.. أحسست بالمكان يضيق، حتى لم يعد هناك متسعٌ لأنفاسي، ثم انهال التراب من حولي، فعرفت أن أحدًا يحاول إخراجي.. فصرخت وفقدت الوعي..

من خرج من التراب ذلك اليوم هو شخص آخر.. لقد حمّلتني الأقدار ما ليس بطاقتي، ومن يومها وأنا أعيش للانتقام.. حياة هي أقرب للموت..

*****

حتى طريقتهم في القتال أبهرتني، كانوا يتبعون أساليب حرب العصابات، يضربون ضربتهم بعنف ثم يختفون، وبذلك استطاعوا أن ينزلوا كثيرًا من الخسائر بقوات الحكومة، وهم يستنزفون أسلحتها ومواردها.. حتى أنا انطلقت معهم يوما في إحدى حملاتهم، ومثلهم ارتديت زيًّا أسودًا، وعندما وضعت القناع على وجهي، شعرت

بإبتسامة فرحة تملؤه، وأنا أشعر بنفسي إنسانة جديدة، إنسانة أخرى، لم تعرف ذلك الظلام الذي أذلني يومًا، وجعلني أطير هاربة من كل شخص وكل شيء عرفته قبلًا في حياتي، هاجرت إلى حياة جديدة دون أيَّة نية في الرجوع.. كانت الحملة على المستشفى الذي كنت أعمل به عندما قدمت إلى هنا أول مرة.. وحملنا معنا كل الأدوية والأمصال التي نحتاجها لمقاومة لا نهاية لها، إلا الموت أو الحرية.. ولكن لست أدري، عندما عدنا إلى مقر المقاومة ثانية، لمَ أحسست وأنا أخلع ثياب المقاتلة، أن ضعفي القديم قد عاد، أحسست أن جرحي القديم قد عاد ينبض ثانية بألم وأنا عاجزة عن الإقتراب منه، وعن محو ألمه وإستئصاله من حياتي كأن لم يكن.. ولكني قررت أن أتركه للأيام علّها تستطيع معه، ما لم أستطعه.. واستأنفت حياتي ثانية، متناسية كل شيء وكأني ولدت من جديد..

*****

6

"من أنت يا (إيتاء)؟ أحكي لي عنك.. عسير جدًا أن أصدق أن هناك حياة سبقت ما نعيشه الآن.. حتى أنا، وأنا غريبة عنكم أكاد لا أذكر حياتي قبل مجيئي إليكم"..

أسندت (إيتاء) ظهرها إلى الحائط، ورفعت حاجبيها في حزن، ووضعت كوب الشاي الذي تحمله وهي تقول: "سأخبرك.. ولعلها ستكون المرة الأخيرة التي سأحكي فيها تلك الحكاية.. لن اتكلم عنها ثانية، بل وحتى لن أمسك قلمًا بعد الآن.. بل سأمسك حجرًا كبيرًا أقذفه في وجه الظلم والقسوة.. إنني فتاة، ولكني لا أحمل داخلي أي حلم من أحلام الفتيات.. إنهن يحلمن بالمستقبل، الحب والحياة.. ولكن أنا يراودني كابوسٌ واحد.. سماء تمطر دمًا، أنين يملأ الفضاء، وطفلة صغيرة مرتجفة.. إنني من (تعزيز).. ومنذ أن وعيت، وأنا أعلم أن هذه الكلمة مرادفة للخوف والذعر وعدم الأمان.. كنت كلما رأيت الجثث تتساقط أمام عيني أخفي وجهي في ذعر وأنا أتساءل: "لماذا؟" ولكن أصابعي الآن تنفرج أمام عيني..أصبحت أجبر نفسي على الرؤية

وأنا أتساءل:"متى..؟". لم أعرف لي أمًّا.. فلعلها ماتت مع من ماتوا.. تفتحت عيناي على الدنيا من حولي باكية، وأنا اشاركها بكاءها.. إن أصابعي ترتجف، ولكني سأستأنف الحكاية..

- "توقفي الآن إن أردتِ.. اعتذر إن كان السؤال آلمكِ"..

- "لا عليكِ.. إن أي إنسان يحتاج إلى شاهد ومؤرخ لحكايته.. إنني يجب أن أشكرك.. لقد مات أبي وأخي.. ماتا في مذبحة الخليلية.. عندما سمعت النبأ عدوتُ مسرعة إلى هناك.. ورأيتهما.. لا، بل رأيت مئات الجثث التي تتساءل لماذا؟؟ رأيت الأرض وقد سالت عليها الدماء، أمام هذا المنظر تراجعت، لم أستطع التقدم.. ثم استدرت مبتعدة، وعدوت مسرعة لعلِّي اتجاوز حاجز الزمان والمكان.. أغطي أذني بقوة حتى لا أسمع صوت الصرخات والدموع.. ولكن هيهات، لقد كانت بداخلي.. أدفن وجهي في الرمال حتى لا أرى منظر الجثث المحفور في ذهني.. لا أعرف إن كنت صرخت أم لا.. لا أعرف إن كنت بكيت أم لا.. ولكني أعرف أني عندما رجعت إلى رشدي، وجدت أني وحيدة.. في ظلام دامس موحش.. أحسست أني ارتجف،

أحسست أني تعبة، تعبة.. نهضت من مكاني، والرياح الموجعة تلعب بى.. ومن عيني سالت دموع مريرة، ساكنة، عميقة كأمطار الشتاء.. وقد تساقط الأمل الكاذب بعد أن تعلقنا جميعا به كالغرقى.. كنت طفلة ولم أكن كذلك.. لم أعرف يومًا حضن أمي أو حنان أبي.. لم أولد في مهد تحفُّني صيحات الفرحة.. بل ولدت خلسة من الزمان، في مكان استعار من القبر ظلمته وضيقه.. ومن ساعة مولدي، حوّلت ملائكة الرحمة وجهها بعيدًا.. كنت اتسول لأجد ما آكله.. ولن أنسى عندما تلقيت يومًا صفعة ألقتني أرضا ونظرة إشمئزاز مازلت أذكرها حتى الآن.. انكفيت على الأرض أبكي وأبكي.. حياة أقرب إلى الموت أو لعله موت به آثار للحياة.. عملت في كل شيء، اشتغلت كل الأشغال.. وماحماني هذا من المهانة.. أنظر في زجاج أصادفه، فتطالعني صورة مخيفة مرعبة، عينان خاويتان تعودتا على الألم حتى صار يسكنهما.. يداي جافة متشققة، سوداء..قدميّ ماعاد يرهبهما حصى الطريق.. الطريق الذي أمشي فيه بلا هدى، بلا نهاية، أو أمل.. عندما ولدت طفلي، صممت أن أحميه من كل شيء.. أعتقد أني لم أعرف يوما

الإبتسام حتى رأيته بين ذراعيّ.. كان ملاكي الصغير.. عوّضني عن كل شيء، وسامحت الدنيا عندما رأيته.. وعندما ذهب.. أُخِذ مني بمنتهى القسوة.. لم أدرِ كيف أفكر.. خاطبت الله بمنتهى الغضب، وأنا أبحث عن الإيمان، فلا أجد إلا الضلال يحوطني.. أخذ مني ملاكي، ورأيت البشر حولي شياطين سوداء بشعة.. ولكني فَرِحة، على الأقل إن الآن ابني لن يتعذب مثلنا.. لقد ذهبتْ روحه إلى عالم لا يعرف القسوة، ولا الحرمان أو الدموع.. عندما ضمه التراب، أحسست وكأني سأفقد عقلي.. ولكنه جاءني وأنا نائمة.. وجهه تنيره إبتسامته المشرقة، واستيقظت وصدى ضحكته بردًا وسلامًا في أذني.. ماعدتُ استطيع الكلام أكثر.. سأبكي قليلًا ثم أنهض.. وبيدي المرتجفة سأثأر.. سأثأر لأمي التي لم أرَها.. لأبي وأخي اللذين ماتا برصاص الغدر والخيانة.. لملاكي البريء.. ولعلِّي سأموت أنا أيضًا قبل أن أرى مشهد الشمس وهي تشرق على (تعزيز) حرة.. ولكن قبل أن أموت ساتناول حجرًا كبيرًا أقذفه إلى وجه الظلم، القسوة والحياة..

7

ذات صباح، انطلقت مكبرات الصوت على عربات تجوب المدينة، حاملة رسالة تدعو فيها الحكومة الثوار إلى إجتماع للتفاوض في مكان محايد.. أخذت تلك الرسالة تتردد في أنحاء المدينة طوال النهار.. كنت أرى المتمردين يتبادلون فيما بينهم نظرات الشك والريبة، ثم يعودون لأعمالهم في صمت حتى لا يلفتوا الإنتباه.. وفي الليل عندما اجتمعوا ليقرروا ماذا سيفعلون، كان جانب الشك في دوافع ذلك الاجتماع هو الغالب.. انتشرت البلبلة والتخبط فيما بينهم، وهم عاجزون عن الوصول إلى قرار يتخذونه، حتى ارتفع صوت (منذر) فيما بينهم قائلًا: "أسمعوني يا إخواني، أنا أقبل ذلك الاجتماع، وسأذهب إليه.. وحيدًا".. (ساد الصمت قليلًا، ثم ارتفعت عدة أصوات معارضة)، فقال لهم: "إنكم جميعا تعلمون أن قوتنا الوحيدة هي إرادتنا، أما ما عدا ذلك، فأنتم تعرفون أن مواردنا ستنضب عاجلًا أم آجلًا، إننا نفقد عديدًا من الرجال، حقيقي ليس مثلما كان يحدث من قبل، وأنتم تعرفون صاحبة الفضل في ذلك، (قالها وهو يدير عينيه إليّ، فأطرقت

وقد إحمرَّ وجهي.. ولكنه استأنف كأن لم يلاحظ)، ولكني لم أعد أستطيع تحمل ذلك.. اتمنَّى لو عدنا ثانية أسرًا سعيدة، فتيات جميلات، وشبابًا مرحين، نتعلم ونبني ونعمر.. لا أكتم عليكم إن ذلك الوضع –على الرغم من حتميته– صار يجثم على صدري، ويقتل داخلي كل شيء جميل.. إن نسبة صدقهم في الخلاص من تلك الصراعات واردة، ويجب أن نضعها في الحسبان.. سأذهب إليهم وحيدًا، ومعي ورقة تفويض، تثبت أني موفد من قبلكم.. إن عدت، سأحمل معي أملا جديدا.. وإن لم أعد، فيجب ألا تتوقفوا أبدا قبل تحقيق ما عاهدنا عليه أنفسنا: "الحرية أو الموت"، سأذهب غدا صباحا.." ثم غادر المكان وعيونهم جميعًا تتبعه بالخوف والترقب..

*****

8

وأتى الصباح ووجوههم جميعًا تحمل آثار ليلة طويلة من السهر والقلق.. كان قد قرّ قرارهم ليلة أمس على ذهاب خمسة رجال من بينهم (منذر).. راقبناهم وهم يرحلون في صمت، وإذ عجزت عن تحمل أفكاري القلقة، فأسرعت إلى (إيتاء) لأشاركها فيهم.. وما أن رأيتها حتى بادرتها بقولي: "إيتاء، أتعتقدين أنهم سيصلون إلى اتفاقية سلام في ذلك الاجتماع الذي سيعقدونه؟؟"

حرَّكت رأسها في حيرة وهي تقول:" في الحقيقة، لست أدري.. إن بداخلي شعورًا سيئًا تجاه ذلك الاجتماع، ولكن كان لابد أن نذهب، وإلا أثاروا الرأي العام ضدنا، بأننا نحن من نرفض السلام..(ثم سألتني في ضيق) أتظنين يا عائشة إننا على خطأ؟ ليت ذلك العالم الذي أدانا يأتي ليرى كيف نعيش غرباء في وطننا، لا ثمن لنا ولا هوية، ولا حتى أمل في أن يرى أطفالنا حياة أفضل من تلك التي سرقت منا.. بربك، أتستطيعين أنتِ أن تعيشي هكذا، بعد أن عشت يوما تحت سماء زرقاء يحلق فيها الطير حرًا، حرًا، فاردًا جناحيه على إتساع الأفق..

أتكونين أنتِ يا من كرَّمكِ الله أقل من الحيوان منزلة، لا تستطيعين حلًّا ولا ربطًا في حياتك، بل ولا تستطيعين حتى أن تأملي أن يكون طفلك خيرًا منك يومًا..أتستطيعين أن تظلي طوال حياتك تنظرين إلى القضبان ولا ترين السماء، تتذكرين وتشعرين بالمرارة وتسكتين لأنك خائفة.. أتستطيعين؟"

وماذا كنت أستطيع أن أقول؟ كنت أحدق في وجهها الثائر الذي تلمع عليه قطرات العرق والمرارة والغضب وأنا مبهورة.. وقد أحسست فجأة بسخونة الدموع في عيني وأنا أتمنى لو... لوكنت مكانها.. نعم، أغريب هذا؟ أن اتمنى أنا الحرة، لو كنت مكانها؟

كم رغبت في أن تنبع من داخلي قوة جبارة صارخة مثل تلك التي أراها أمامي، قوة كانت تستطيع -لو كنت وجدتها قبلاً- أن تجعلني أدافع عن نفسي في تلك المشكلة التي واجهتني، بل وأموت دونها راضية.. كنت أتمنى لو وجدت شيئا يهزني من أعماقي، ويستخرج من داخلي المقاتلة التي لم أعرفها يومًا، لعلِّي بها أكفرّ ذنب تلك الجبانة التي تركت وراءها كل شيء، وفرت هاربة بعيدًا، بعيدًا عن الدنيا بأكملها.. كنت أتمنى لو عرفت.....

ولكن يدا (إيتاء) أمسكتا كتفي فجأة، فانتفضت من أفكاري بقوة، وأنا التفت إليها متسائلة، فوجدت الذعر يملأ عيونها وهي تهتف في ذعر: "ألا تسمعين ذلك الصوت؟!" وفعلًا سمعت هديرًا قويًا يملأ السماء، فإتسعت عيناي في ذعر وأنا أسألها: "طائرات؟"

أحسست بالذعر يشل كل أطرافي ويكاد يقعدني عن الحركة، وقد أحسست أن نهايتي قد أتت، ولكني وجدتها تدفعني إلى الخارج، حيث وجدنا الصرخات تملأ المكان، وكلهم يتدافعون في ذعر هنا وهناك.. توقف عقلي عن التفكير والخوف يزلزل قلبي، وأنا اهرول إلى

حيث لا أدري.. ولكن عندما رأيت طفلًا وقد وقع عند إصطدامه بأحد الهاربين على الأرض، لم أشعر إلا وأنا انحني في سرعة وأحمله وهو يتعلق بي، ويلف ذراعيه حول عنقي، وهو يبكي في ذعر..

كان صوت القنابل وهي تشق السماء وتسقط بصفير كأنه ضحكة الشيطان مرعبًا، مهولًا، ولا توجد أية فكرة تسيطر على ذهني سوى صراخ هستيري عجزت عن إطلاقه، وأنا أقول لنفسي: "إن هذا لا يحدث، ليس حقيقيًّا، لا يمكن أن أكون أنا تلك المرأة التي تجري وسط الأوحال، تتعثر وتسقط، وقنابل حقيقية وانفجارات في أذيالها.. إنه كابوس، وبمجهود بسيط سأفيق منه الآن".. ولا فائدة..

كانت هذه أول مرة منذ جئت إلى (تعزيز) اتعرض فيها لتلك التجربة الحيَّة الرهيبة.. إنها تجربة تلغي أي شعور إنساني لديك.. إنها تجعلك كالحيوان المطارد، لا يصرخ بداخلك إلا غريزتي الفرار والبقاء.. الفرار من الصائد، والتشبث المجنون بالحياة.. ويا ويل الحيوان لو تباطأ أو نظر لحظة للوراء، ويلٌ له لو أحس بالتعب قبل أن يملأه الأمان.. ويل له لو نسيّ قانون الغابة وسيادة القوي.. كنت في

عَدْوِي تصفعني أغصان الأشجار، وتملأ وجهي بالجروح كإبر حادة.. كنت أجري وأجري وأسقط، وأنهض وأجري وكأني دخلت في سباق مع نبضات قلبي.. حتى أحسست فجأة بالهدوء يسود، حتى لا يقطعه إلا صوت أنفاسي اللاهثة، نبضات قلبي تملأ أذني كأصوات الطبول، ووجدت نفسي أسقط عند جذع شجرة على مقربة من النهر الكبير، حيث اتفقنا أن يكون اللقاء ساعة الخطر.. أسندت رأسي إليه، وأغمضت عيني وتمنيت أن أظل هكذا حتى أموت.. ولكني فجأة! أحسست بذراعي الطفل تنفكان من حول رقبتي ببطء، فنظرت إليه وأنا أبتسم بصعوبة وقلت: "حسنًا، لقد فعلناها أيها الصغير، لقد نجونا".. كان وجهه شديد الشحوب، وكان طفلًا في الثامنة يحدق إليّ بعينين رأيت فيهما نظرة رجل شيخ، وهما متسعتين في فزع.. ثم ارتمى مجددًا على صدري وهو ينشج بالبكاء ويحتضنني بشدة.. احتضنته أنا أيضًا وأنا أدفن وجهه الصغير في تجويف عنقي، وأقول(لنفسي قبل أن أقول له وقلبي يئن من بكائه): "لا تخفْ، لا تخفْ.. لقد انتهى كل شيء"..

وهو لا يجيب إلا بنشيج محرق ويداه الصغيرتان تتعلقان بي بشدة.. شعور غريب ذلك الذي استولى عليّ، رجفة باردة مرت في جسدي، وأنا أتحسس اليدين الصغيرتين اللتين تحيطان بعنقي، وتعيدان إلى قلبي –بقسوة– ذلك الحلم الذي طالما وأدته داخلي كلما تذكرته.. ذلك الحلم الذي طالما راود منامي بقسوة مريرة.. أعرف أن يستيقظ الإنسان من نومه صارخا من كابوس، لكن حلمي أنا من فرط جماله، من فرط عذوبته، من فرط استحالته، كان يوقظني وأنا اتمنى أن أموت فيه فلا استيقظ أبدًا..

9

حديقة جميلة واسعة، فيها أرجوحة تهتز بلطف، وكأنما النسيم هو الذي يهدهدها وكأنه أمٌّ حنون.. وعليها طفلة جميلة، ترتدي ثوبًا واسعًا، منقوش عليه كثيرٌ من الأزهار والورد المبتسم.. ولكن هي، هي لم تكن تبتسم، وقد أمالت رأسها قليلا وهي تنظر إليّ، والرياح تبعثر خصلات سمراء ناعمة على جبينها الأبيض.. وكأنها تسألني في عتاب: "أين أنتِ؟ لماذا لا تأتين؟؟" فتكون إجابتي دائمًا صرخة توقظني فزعة في ليل أسود، وأنا أنشج باكية: "لا أستطيع، لا أستطيع.."، وأدفن وجهي في وسادتي لعلّها تريحني من شهقات البكاء التي تصطرع داخلي أيهم يخرج أولًا..

راودني ذلك الشعور نفسه وأنا أمسح خدي بحنين في تلك اليد الناعمة للطفل، والتي تتعلق بي في خوف.. لم أملك إلا أن أحتضنه بقوة وأقول: "لا تخف، إني بجانبك، لن أتركك هذه المرة، لن أتركك".. وعادت إليّ الذكريات عندما أغلقت عيني، ودموعي تتساقط على رأسه الصغير الذي أراحه على صدري، واستسلم لنعاس

مضطرب من شدة التعب والإرهاق.. وكيف أأنسى صرخات الألم التي كنت أحاول -عبثا- كبتها، وأنا أستعد لولادة طفلتي في تلك الحجرة الفاخرة من المستشفى التي يملكها زوجي.. كانت قطرات العرق البارد تملأ جبيني، وأنا أغلق عيني بقوة عند الألم، وأنا بانتظار أن تولد الشمس من داخلي.. أن ينفصل عني ذلك الثقل العذب الذي ظللت أحمله ثمانية أشهر بالضبط.. انتظرت أن تهبط من داخلي من تفسر لمَ أحيا تلك الحياة مع رجل كلما نظر إليّ أو لمسني أو أسمعني كلمة حب، يتردد في داخلي شعور قوي بأن هناك شيئًا ما خاطئًا، لست أدري أين هو أو ماهيته لأحاول إصلاحه..

أحسست أني بتلك الصرخات أناديها: "هيا أقبلي كي تعطيني معنى لحياتي بأكملها.."، كنت كلما خفت حدة التقلصات وآلام المخاض قليلا، أعدها أن أكون خير أمٍّ لها، بعد أن فشلت أن أكون امرأة.. فشلت أن أعيش الحب واتنفسه، لذلك أردت بشدة أن أضم تلك الصغيرة التي عاشت بداخلي، بجوار قلبي.. إليّ.. أبكي وأضحك عندما أراها وأنا أعدها بكل الحب في قلبي.. عاودتني ثانية

تلك الآلام الرهيبة، حتى لم أشعر بنفسي إلا وأنا أغيب عن الوعي من شدة الألم وأنا أسمع زوجي يقول: "لابد من جراحة قيصرية حالا.." وكيف أنسى عندما استيقظت منهكة، تلف الدنيا بي في دوار مؤلم، شعرت بألم الجرح، فوضعت يدي على الضمادة فوقه، وأنا أدير رأسي في ضعف لتلتقيان بعيني أمي الدامعتين، وهي تنحني فوقي وتقول: "هل أفقتِ يا حبيبتي؟" ... أفزعتني عيناها، فلقد كانت الدموع تنهال منهما وحولهما سواد، وكأنها ما برحت تبكي طويلًا.. قلت لها (مطمئنة بصوت واهن): "ما بكِ يا أمي؟ أنا بخير.. أين طفلتي؟ وأين زوجي؟ أريد أن أراهما.." رأيت الارتباك على وجهها وهي تقول: "حالًا، يا ابنتي، حالًا.." وأسرعت بالخروج، فأسندت أنا رأسي للوسادة ثانية في ضعف، وأنا أشعر بجرح معدتي ينبض نبضات مؤلمة تخطف أنفاسي أحيانًا.. أدرت رأسي للباب عندما سمعت زوجي يدخل، انتظرته أن يقترب مني مبتسمًا، ويضمني إليه بحنان، ولكن عندما نظرت إلى وجهه وهو واقف متباعد على رأس الفراش، راعتني منه نظرة قسوة باردة مرتسمة في عينيه.. آلمني موقفه بشدة، وقد كنت

أنتظر منه أن يأتي إليّ ليعادل بقوته ضعفي.. أدرت وجهي بعيدًا عن عينيه اللتين ترمقانني بقسوة، أحسست وقتها أنه لا يوجد ما يبررها، انتظرت أن تدخل وراءه الممرضة حاملة طفلتي، ولكن عبثًا.. وعندما لم تدخل، لم أستطع مداراة لهفتي؛ فسألته: "أين هي؟"

قال(ببرود قاتل): "ماتت، لقد وَلَدْتِ طفلة مصابة بعيب خلقي في القلب، وتشوهات بالساقين؛ ولم تلبث أن ماتت ونحن لا نزال بغرفة العمليات.."

ثم استدار خارجًا متجاهلًا صرختي الفزعة، وأنا أردد: "ماتت".. أيكون ما حلمت به طوال تلك الفترة وهمًا؟ ولكن كلا.. لقد أحسست بنبضات قلبها وهي تنبض بجوار قلبي.. سمعتها مرارًا وهي تناديني في أحلامي.. كلا، لا يمكن أن تكون قد ماتت".. وغرقت بعدها في دوامة بعيدة لا أملك معها سيطرة على نفسي، هاوية عميقة أدور فيها، وأدور في بحر من الدموع، لا أجد فيه يدًا تنتشلني وتمنعني من السقوط.. وفي وسط ذلك كله كنت أسمع صوتها - صوت طفلتي- خافتا يناديني:" أمي لمَ تركتيني؟" فرددت بقوة: "أنا

لم أتركك، أنا لم أتركك، صدقيني"... أفقت من أحلامي على يد الصغير تهزني، أعادتني للواقع، وأنا أنظر حولي بنظرات تائهة، فأجدني جالسة عند جذع الشجرة وهو ينظر إليّ بدهشة وفزع.. أحسست بقطرات من عرق بارد تتجمع على جبيني، تجاهلتها وأنا أطمئنه بابتسامة، وأضغط رأسه على صدري بحنان لينام من جديد، ولأغرق أنا في ذكرياتي من جديد.. فعدت ثانية إلى ذكرياتي، سمعت نفسي أقول (بهدوء لم أتوقعه، وكأن غيري يتكلم): "لقد قتلتها، أليس كذلك؟ أنا وأنت نعرف جيدًا إن ذلك المرض لا يقتل صاحبه.. أليس كذلك؟ أجبني"..

- "نعم، قتلتها".. (رد زوجي ببرود غريب)..

- فقلت (بصوت ذبيح):" لمَ؟ "

-فقال (بثورة قاسية): "أظننت أني سأعيش حبيس طفلة مشوهة طوال عمري؟ لا يا سيدتي، كفاني ما عانيته منك، من برودك معي، كفاني أنك لست امرأة.. لست امرأة.. لا تشعرين.. أكنتِ تريدين مني

فوق ذلك أن أتحمل طفلة مشوهة؟ نعم، بيدي هاتين ضغطت على عنقها حتى عجزت عن التنفس وماتت، لقد أنقذتها ولم أقتلها"..

أحسست بألم رهيب في قلبي وأنا أقول: "أيها القاتل.. ألم تخف من الله؟ ألم يرك أحدًا"..

فتقدم إليّ في ثورة وأمسك كتفيّ يهزهما في عنف، فأحسست بجرح بطني ينزف منه الدماء وأنا أتأوه بعنف من قسوة يديه: "لا تقولي ذلك، لا تقولي ذلك.. لست بقاتل، لقد أنقذتها من الحياة معك.. أنقذتها من العيش أسيرة ساقين لا تستطيعان حملها لترى الدنيا.. ولا، لم يرني أحدًا.. فلقد شغلت الممرضات بالعناية بك، ولن تستطيعي إثبات شيء، أنسيت إن هذا مستشفاي، وكلمتي هي الأولى والأخيرة فيها..

كان الألم يعصف بجسدي وقلبي وأنا أبكي في جنون، وأصرخ فيه قائلة: "حررني منك، لا أريد أن أراك، لا أريد أن أراك أيها القاتل.. طلقني أيها الحقير"..

أحسست بيديه تتركان كتفي في بطء وهو يحدق فيَّ ببرود ويقول: "أظننتِ أني أستطيع أن أعيش معك ثانية؟" وكسى وجهه اشمئزاز رهيب وهو يقول: "لقد أصبحت أكرهكِ، أكرهكِ.. إنك لست امرأة، لست امرأة.. إنك أرض مشوهة تلد أمساخًا.. أظننت أني أستطيع لمسك ثانية؟ أهوّن عليّ أن أمارس الحب مع أنثى العنكبوت عن أن أقترب منك.. ولكن قبل أن أطّلقك، لي تعويض عن أيامي التي عشتها حبيسًا معك"..

وقبل أن أستطيع الحركة رفع يده، وهوى على وجهي بصفعة هائلة، أدارت رأسي إلى الجانب الآخر من شدتها، وانتزعت من قلبي صرخة فزعة، وأنا أخشى أن يقتلني أنا أيضا.. ولكني سمعت صوت الباب وهو يصفق في عنف وهو يغادر، وصاحب ذلك الصوت صوت شهقاتي ودموعي وأنا أغيب عن الدنيا..

*****

10

وتذكرت الليلة التي فررت فيها وتركت كل شيء خلفي.. ثمة أنواع مختلفة من السجون.. عندما أفقت يومها بعد تجربتي المريرة السابقة.. أحسست وكأني مشلولة.. سجينة جسد لن يسمح لي بعد اليوم بالركض في حديقة، أو بالرقص، أو بحمل طفل بين ذراعي.. كان الألم النفسي الذي يعصف بروحي أسوأ بكثير من أي ألم جسدي قد أشعر به.. بقيت فترة طويلة ممدّدة على ظهري، وأنا أسأل: "هل الحياة تستحق العيش؟؟ وبدا لي وكأني خسرت كل شيء ذي معنى.. ولكن في أحد الأيام، خطر لي أني مازلت أملك حرية الاختيار.. ابتسم عندما أرى أهلي أم أبكي..؟ هل ألوم الله أم أسأله أن يقوي إيماني..؟ بكلمات أخرى.. ماذا أفعل بتلك الإرادة الحرة التي لا تزال ملكي..؟ قد أكون فقدت الاستمتاع بالحياة، ولكني قررت التفتيش عن طرق أتخطى بها عوائقي الجسدية بتوسيع آفاقي العقلية والروحية.. كان عندي إختيارين، أن أفعل شيئا مفيدًا، أو أن أموت..

للحرية أشكال كثيرة، وعندما نخسر شكلًا، علينا البحث عن شكل آخر.. لك أن تنظر إلى قضبانك، ولك أن تنظر من خلالها.. لك أن تحب الله وتسعى إلى رضاه، ولك أن تدير له ظهرك.. وأنا قد إخترت.. تناولت ورقة وقلم، وتركت خطابًا لأبي، فما كان لي غيره، وأمي.. وكنت أشعرفي الأيام الأخيرة أنني أصبحت لا أطيقهما.. نظراتهما الحزينة لي.. الإحتواء المبالغ فيه من جانبهما.. (التحسيس) الفظيع في الكلمات، ونظراتهم المشفقة تؤلمني أكثر من طعنات السكاكين.. و كتبت الخطاب الأخير..

ابي:

"أكتب إليك الآن من ظلمة مجلسي هذا.. والذي لا يتسلل إليه إلا أضواء خافتة من بين ضلفتيّ النافذة.. لست أدري لمَ أكتب إليك؟ على الرغم من أن الكتابة صارت تقليعة قديمة تلك الأيام.. ولكني أصبحت عاجزة عن الكلام معك وأمي مؤخرًا.. مابين صرخاتي ودموعي، وآهات شيخوختك الكسيرة وأنت عاجز عن الوقوف أمام زوجي وعائلته ونفوذه.. لقد أخطأتُ يا أبي، خطيئة أشعر الآن ببشاعتها أكثر من أي وقت مضى.. لا أعتقد أبدًا أني سأكون قادرة على

أن أكفِّر عن خطيئتي.. لقد أحببتُ يا أبي، وليت قلبي ذلك المجرم الآثم توقف ألف مرة قبل أن ينبض باسم ذلك الذي أحببته.. أتذكر يا أبي عندما وجدتني هائمة في عالم آخر غير الذي كنا فيه، وسألتني بطيبة عمَّ بي؟؟ أتذكر ابتسامتي الخجلة وأنا أحكي لك حكايتي معه.. ذلك الطبيب الشاب.. أراك أيضا وأنت تقول بحزن بعد أن انتهيت: "يا بنتي ده مش توبنا، دول عيلة كبيرة واحنا مش قدهم".. وأقاطعك بكل حماقة الشباب وجنونه، "أحبه ويحبني.. الطبقات دي كانت زمان".. رباه!! أشعر في داخلي بخواء قاتل.. عاجزة أنا عن أن أتكلم، أن أحكي، أن أقول.. لا تدري كم كنت قريبة من الموت؟ ماعادت تلك الفكرة تخيفني بعد أن فقدت كل شيء.. ماعاد لي سواك يا أبي أنت وأمي يبكيني.. وآسفة حقًّا أني سأؤلم قلبك برحيلي.. وأعلم أنك ستبكيني على الرغم من علمك بخطيئتي.. صدِّقني، إني إلى الآن لا أعرف ما الذي حدث، وكيف انقلبت الدنيا فجأة فوق رأسي.. لقد حمَلَني الحب فوق سحاب ناعم، صدّقت وعوده.. صممت أن انتزع من الدنيا حقي في السعادة.. حملتني أحلام مجنونة إلى السحاب..

وجدت نفسي جميلة، ضاحكة، وأنا بين ذراعيه، تذيبني ضحكته الحنونة.. وحلمت بطفلة جميلة منه، أحملها بجوار قلبي، تختلط نبضاتها بنبضاتي.. ونريها معًا دنيا أخرى غير دنيا الفقر التي نشأت فيها.. لا، يا أبي .. أرجوك لا تعتقد أني ألومك على نشأتي.. فلقد ربيتني طبيبة، ربيتني على الأخلاق.. والآن، لا استطيع إلا أن ألومك إنك لم تعدني لتلك الدنيا القبيحة التي نعيش فيها.. حين عرفت أني خسرت طفلتي، وأنه طلقني بتلك الطريقة البشعة، وهو يفسر ذلك بأني " أرض مشوهة ".. وكأن كل دوري في حياتي أن أجلب له أطفالا أصحاء يحملون اسم عائلته..

أحسست بخيانته تقتلني، أحسست به يحمّلني مسئولية ما لا أعرفه.. ولا أعرف كيفية تغييره.. هانت عليَّ الحياة، ورأيت الموت يدعوني.. وجدت قوة غريبة تشدني إلى النافذة، وأنا اترنح واقترب منها.. والآن، اترنح بضعف وأنا واقفة أمامها، وأمامي السماء واسعة، رحيبة.. وكأنها تعدني أن الموت لا يمكن أن يكون بقسوة خيانة الحبيب.. وكان كل شيء يدعوني أن..أقفز.. أبي.. إن الدموع تملأ

عيني، فلا أستطيع أن أرى ما أكتب.. لقد تراجعت عن فكرة الموت.. فلا تنسَ -وضحكت لنفسي بسخرية- أني (عائشة).. ولكني لن أستطيع البقاء.. إني راحلة..

لقد جهزتُ كل شيء، وسأسافر في الصباح دون أن تعلما.. وعذرًا لذلك، ولكني ما عدت قادرة على احتمال الوداع والخسارة.. أراك الآن، وعينيك تمتلئان بالدموع.. أعلم أنك وأمي كبيران في السن، وأعلم أنه قد لا يقدر لنا اللقاء ثانية.. ولكن سامحني.. لن أستطيع العودة إلى هنا.. إن كل ما هنا يخنقني بذكرياته، وكأنه دخان مسموم يملأ رئتيَّ.. غريب أني عندما بدأت الكتابة إليك أردت أن أشاركك لحظات حلوة لطفولتي معك، أتركها إليك.. ولكني لم أجد إلا الدموع.. لا تنساني يا أبي.. وسامحني..

*****

وعندما أتى خطاب إليّ في إحدى سفرياتى الكثيرة.. مات أبي.. أسندت رأسي إلى الجدار، وانتقلت برودته إلى رأسي المحموم.. أغلقت عيني- ولكن عبثًا - فرت دمعة من تحت جفني المغلق مالبثت أن تبعتها أخرى، وأخريات.. مات أبي.. كلمتان.. ولكنهما تحملان آلاف المعاني العاجزة.. ذهب الجدار الذي يحميني.. لم أعد طفلة بعد الآن.. كان لك دومًا مكان خاص في قلبي.. شخص، حنون، مرح، صديق.. لم تشعرني أبدا أنك بعيد عني.. كان يقيني أني عندما ستنتهي رحلتي سألتفت فأجد عينيك الحانيتين.. حتى عندما سافرت.. سافرت إليَّ خطاباتك.. أخبرتني أنك تتفهم، وأنك موجود لتساندني في قراري أيًّا كان.. كنت دائما أراك جبلًا.. خانني أن أرى شيبك وضعفك في الأيام الأخيرة..

أشعر أني أقف وحيدة، ضائعة، مرتجفة.. تتلقفني الرياح وتقذفني إلى كل جانب.. وأنا لا أملك ردًا ولا دفعًا سوى دموع تنهال في صمت.. أفي لحظة يتحول إنسان دافيء حنون إلى جسد بارد صامت؟؟ عينان شاخصتان إلى عالم آخر غير الذي نحن فيه؟؟ أسمع صراخا

بداخلي: "يا أبي، لا تذهب".. ولا مجيب، صمت رهيب يلفني وأنا اتمنى أن أراه للمرة الأخيرة.. والمصيبة أنه مات وأنا بعيدة، لم أرَه.. لم أكن بجواره.. لن أراه ثانية، لن أشعر بيده الحانية لتجفف دمعي.. أصبحت أنظر إلى الحياة في خوف، أنظر إلى أيامي القادمة وكأنها تقف في صف طويل، تلوح على محياها الشراسة وتقول وهي تمر عليّ: "حذاري مني"..

أول مواجهة لي مع موت شخص قريب مني.. صفعة.. أتظاهر بالثبات ولكن رأسي يدور.. عيناي دامعة وقلبي يحترق.. ذهبت يا أبي.. ذهبت وتركت طفلة، مرتجفة، ضائعة.. انتهى الأمر.. مات أبي..

الأحزان لا تزدرد.. وعندما نحاول أن نبتلع أوجاعنا في المحن، ونروح ونغدو وسط الضجيج بوجوه منبسطة الأسارير، لا تعبر عمًا يعتمل في نفوسنا من مشاعر، وما يصطخب في قلوبنا من انفعالات.. ويخيل إلينا أننا قد بتنا بلا أوجاع.. حتى تنكأ جراحنا همسة أو لمسة.. وإذ بنا ننتفض فجأة.. وإذ بالأحزان التي خلناها قد ذابت، تتلوى في باطننا وتعتصر قلوبنا وتحاول أن تجد لها مخرجا.. في دمعة تراق، أو آهة تعلو..

الأحداث تجرفني، كما تجرف الملايين في هذه الأيام.. وإحساس بالظلم لا أعرف ممن.. يملأ نفسي ..ولا أملك إلا أن أنطلق في الزحام.. أكتب وأتحدث، آكل وأشرب.. وأحاول أن أنام.. وأن أفعل ما يجب أن يفعله الناس لأنفسهم وللآخرين..

وكل شيء يبدو كما هو.. وكأن شيئا لم يحدث..

وكأن لا يوجد حزن يرسب في أعماقي..

(من وراء الغيم.. يوسف السباعي)

11

انتزعت نفسي من أفكاري، وسارعت بمسح دموعي التي غافلتني وتسللت من عيني، وأنا أرى الناس وقد بدءوا يتوافدون إلى مكاننا بجوار النهر.. كانوا يتوافدون بأنفاس لاهثة ووجوه شاحبة تحمل كل معاني الهزيمة واليأس، حتى إن بعضهم استسلم لنشيج حزين.. كانوا في حالة غريبة من الإنهزام والضعف، وقد انهاروا على الأرض مستسلمين لحالة من اليأس والصمت العاجز.. أسرعت إليهم ووضعت أكبر قدر من الحماسة في صوتي الواثق الذي يكتسبه الطبيب بعد سنوات من ممارسة المهنة، وقلت لهم: "يجب أن نعرف الآن مقدار خسائرنا من الأسلحة والأرواح، ونقوم بمساعدة المصابين والجرحى.. لا يمكن أن نستسلم الآن، فإن جولة واحدة خاسرة لا تعني نهاية الحرب، وإننا"..

فقاطعني رجل كان يسند وجهه إلى جذع الشجرة -غسان- ووجدته يتابعني بنظرة هازئة ويقول:"إننا؟؟ من تظنين نفسك؟ جان دارك؟ أم إحدى بطلات المقاومة السرية؟ إن عملك يقتصر على مداواة

الجروح وليس وضع الخطط، فلم يكن ذلك أبدًا عمل النساء.." ثم ترنح قائمًا وهو يقول: "إنكم تعرفونني جميعًا، لم أكن يومًا بالجبان المتخاذل ولا اليائس الضعيف.. ولكن كفانا ما عانيناه من هواة إطلاق القرارات الحمقاء.. إلامَ قادتنا تلك الحرب التي ألقينا نفسنا في غمارها؟ إلى لا شيء.. لا شيء.. ما زلنا حتى الآن في مكاننا نفسه الذي كنا فيه عندما بدأنا من سنة كاملة، بل ولعلنا صرنا أسوأ.. صرنا لا نملك منازل ولا عائلات ولا هويات.. صرنا لا شيء، أصبحنا نساوي ثمن رصاصة أو أقل.." (وأدار وجهه فيمن حوله والسكون يردد صدى كلماته، ثم بصق على الأرض) قائلًا: لا فائدة.. لا فائدة من ذلك كله.. لقد فشلنا.. فشلنا..

كنت أسمع كلامه، والحنق والغضب والخوف يتصاعدون من داخلي، وأنا أرى اليأس يتراقص على وجوه من حولي، وهم لا يستطيعون إلا الموافقة على كلامه بإطراقة يائسة أو بدمعة عجزت العين عن مقاومتها.. ونحن نرى القتلى والأشلاء والدمار في كل مكان حولنا.. ولكن لست أدري لمَ وجدت في وسط كل ذلك الجو البائس

حولنا، قوة كبيرة تبزغ داخلي، وتجعلني أصيح متحدية: " كفى، كفَّ عن ذلك النواح لو كنت حقا رجلًا كما تدّعي.. أنت تقول إن الحروب والخطط ليسا من أعمال النساء، ولكن أخبرني ماذا تفعل تلك النساء من حولك وما تخاذلن يومًا..؟ إن الحروب لا تترك الاختيار لأحد، وهي لا تختار ضحاياها.. لقد قاتلت النساء إلى جوارك كتفًا إلى كتف وما سمعنا إحداهن تصرخ شاكية من الفشل واليأس كما تفعل أنت الآن.. إن الحرب قد وحّدت القلوب؛ فما عاد هناك رجال ونساء، لقد صار هناك مقاتلون لا يريدون إلا اعترافًا بكونهم بشرًا، بكل ما تحمله تلك الكلمة من سمو ورحمة.. نعم، أنا غريبة عنكم.. وقد تكون هذه ليست قضيتي، ولا تلك بلادي، وقد أكون امرأة.. ولكن ليس في ذلك ما يجعلني أخجل أو أصمت عن كلمة الحق.. ولكني سأخجل حقًا لو كنت في مكانك أبكي وأولول فى انتظارَ أن يأخذ أحد لى حقي، فإن لم يفعل ذلك أحد، أضرب الأرض بقدمي كالأطفال وأعلن أن كل العالم فاشل وجبان.." ثم قلت (وقد رقّ صوتي): "وكيف تقول أنه لا فائدة؟؟ ألا توجد فائدة للثورة؟ أحقًّا نسيت طعم الحرية؟ أحقًّا نسيت

شعور رجل يمشي حرًّا..؟ لا سلطان لأحد عليه إلا سلطان الله؟ أنسيت كل شيء عن الأمل والصدق، عن الحب والجمال؟ ألا تريد كل ذلك ثانية، ولو كان الخيار الآخر هو الموت؟؟

كانت الثورة والغضب تقفزان من عيني، ويحيلان كلماتي حممًا لاهبة جعلت الرجل أمامي يطأطئ رأسه خجلًا، وقطرات العرق تلمع وتسيل على جبينه.. توقفت عن الكلام وإن لم تتوقف عيناي عن إطلاق الثورة، وأنا أحولها عن الرجل، وأديرهما فيمن حولي، وفجأة! أحسست بيد تحتضن كفي، نظرت إليها فوجدتها (إيتاء).. وقبل أن أستطيع الكلام وجدتها تحتضنني بقوة والدموع تلمع في عينيها اللتين يطل منهما الإعياء.. لست أدري كيف أصف تلك السعادة التي أيقظت قلبي الثائر على شيء أجمل من الثورة، وأنا أشعر بيديها حولي تخبراني أني لست غريبة، لست وحيدة، وقد أحسست أني انتمي لأول مرة في حياتي..وقلت لنفسي في إستغراب: " أكان لابد أيتها المرأة الغريبة أن تسافري الى قارة أخرى كي تشعري بالإنتماء؟ لفكرة، لقضية، لشخص؟؟ "

وعلى الرغم من تلك السعادة التي أحسستها إلا أني تخلصت من عناقها بلطف، واستعدت نظرتي المتحدية، وأنا أقول لمن حولي: "إنكم تقولون إنها ليست قضيتي، ولكني لن أسمح لأحدكم أن يضيع جهد تلك الأسابيع التي حاربت فيها إلى جواركم، أريد الآن أن يقول لي أحدكم إني كنت على الجانب الخطأ، أو أني اخطأت بالإنضمام إليكم، وفي ظني أنكم لا تخشون الموت من أجل حقكم في وطنكم.. أخبروني أن كنت مخطأة"..

ولم أكن بحاجة إلى إجابة.. وأنا أرى الحماس يشتعل ثانية في العيون، ويطرد من أمامه أي ضعف أو خوف أو يأس، وامتلأ قلبي بفرحة غامرة عكستها عيناي، وأنا أرى أيديهم تتشابك في قوة ووحدة، وهم يرددون كلمات (منذر) الأخيرة قبل إختفاءه: "الحرية أو الموت"..

12

عندما عدنا أدراجنا كي نعيد تقييم الموقف، كنت استعد وداخلي قدر كبير من الخوف واليأس، والذي كنت أحاول أن أخفيه بأكبر إبتسامة تشجيع استطيعها، عندما تلتقي عيناي بأحد منهم.. كان عددنا قد تناقص إلى حد كبير، والرجال الباقون على الرغم من محاولة استعادة توازنهم بعد الصدمة النفسية التي تعرضنا لها جميعا، إلا أن التعب والإرهاق والجوع كانوا يعصفون بأبدانهم.. كانوا يستندون إلى بعضهم، في خطوات مترنحة، متعثرة في الأوحال والحفر وهم يمشون بإصرار.. كان الطريق مليئا بالأشلاء والجثث، منظر أثار الإنقباض والألم في نفسي، إلا أني سارعت بنفض تلك المشاعر السلبية عن نفسي، ونحن النساء نقوم بمساعدة الجرحى، بينما قام الرجال بجمع الجثث في إحدى الحفر المتخلفة عن القنابل.. ولعل ما أراحنا قليلًا، ونحن نقوم بتلك المهمة الصعبة هو ما اكتشفناه من كون مخزون الأسلحة والأطعمة لا يزال بمخبئه تحت الأرض، لم تفسده القنابل..

وإذ انتهت مهمتنا وجلسنا على الأرض في مجموعات نلتقط أنفاسنا صامتين في انتظار أن يأخذ أحدنا مبادرة التفكير أو إقتراح خطة.. وقبل أن يتكلم أحدنا قامت الشيخة (حبيبة) -كما ندعوها كلنا- بدون كلام بتوزيع أنصبة من الأطعمة على كل الجالسين.. كانت مغامرة كبيرة أن تقوم بتوزيع الطعام الباقي بأكمله، ولكني فهمت فورًا رسالتها التي أرادت توصيلها لنا، بابتسامة سارعت بمساعدتها ولم تلبث أن شاركنا كثير من النساء.. لقد علمت إن الرجل الجائع هو رجل يائس مستسلم، لن تستطيع الوصول إلى عقله وإرادته.. ولعل ذلك المبدأ هو أول ما يقوم به حاكم ظالم، التحكم في أقوات الناس حتى يمتلك إرادتهم بين يديه.. كان غريبًا أن تلك الحركة البسيطة الرائعة التي صدرت عن امرأة في الخمسين في صمت وسهولة، كان لها أكبر الأثر في جعل الحماسة تشتعل ثانية في كل الأعين حولنا.. وقد ساهمت الراحة القليلة والشبع في جعلنا جميعًا نستعيد قوانا ثانية..

وبعدها قام أحد الرجال، والذي علمت بعدها أنه كان يسمى (شعيل) وقال: "لقد آن الأوان أن نفسر ما حدث في ذلك الصباح،

إن المواقع التي تم قصفها بتلك الدقة لا تعني إلا أن إتفاقية السلام تلك كانت مكيدة كبيرة مدبرة بمهارة، وإن رجالنا الخمسة الآن بين أيديهم، وقد اعترف أحدهم أو كلهم تحت التهديد بموقع مركز المقاومة، أتوافقونني على ذلك؟" (وحوّل وجهه فيمن حوله، فوجد ما بين تقطيبة تفكير، أو إطراقة موافقة على وجوههم).. فاستأنف قائلًا: "ما الذي نستطيع أن نفعله الآن؟"

فقالت(إيتاء) ساخرة: " وكأن بأيدينا عدة إختيارات، نختار من بينهم، لقد اخترنا المقاومة منذ البداية، وفيما أراه على وجوهنا جميعًا، أرى أننا ما زلنا مصممين عليها، بل وأكثر من ذلك، وعلى أسوأ تقدير ننتقم لمن فقدناهم.. لقدأحرقنا كل مراكبنا خلفنا حين سرنا في ذلك الطريق، ولا أجد أمامي حلا سوى المسير قدمًا.."

رد عليها رجل آخر قائلا: "إنك على حق يا (إيتاء)، وإني أرى الآن أن نضرب ضربتنا في الحال، وكما وزعنا آخر ما نملك من طعام.. فإننا سنقوم الآن بتوزيع كل ما نملك من أسلحة علينا، عالمين أنها فرصتنا الأخيرة، ولا بديل أمامنا سوى النصر أو.. أو النصر".. (قالها

مبتسمًا)، "صدقوني أنا واثق أنهم الآن يستريحون، وهم يظنون أنهم قد كسروا شوكتنا، وهم يحتفلون الآن بذلك.. والآن فقط، هو الوقت الذي نستطيع فيه أن نأخذهم على حين غرة، وبعون الله ننتصر عليهم، (ثم جال ببصره فى من حوله)، هيا بنا، دعونا لا نضيع مزيدًا من الوقت".. ولكن قبل أن يقوموا، ارتفع صوت (غسان) قائلًا: "انتظروا"..

نظرنا جميعًا إلى (غسان)، ذلك الرجل الذي قام بالتهكم عليّ منذ قليل، عندما كنت أحاول تشجيعهم وقمت بالرد عليه.. وانتظرنا سماع ما سوف يقوله، قال: "إننا سننطلق الآن، ولا يضمن أحدنا الرجوع، أنتم تعرفونني جميعا، لقد عشت بينكم قليل الكلام، وحيدًا، نعم، لكني كنت رجلًا كما أحب أن أفكر، إنكم جميعا تعرفون عني ذلك.. ولهذا فإني أريد أن أسأل سيدتي الطبيبة أن تسامحني".. قالها (وهو ينظر إليّ مقطبا جبينه في خجل وتأثر.. بُهِت لكلامه، حاولت أن أسارع فأقول إني أتفهم موقفه وما دعاه إليه)، ولكنه استأنف قائلًا: " أرجوكِ انتظري.. فإني نادم على ما قلته، ولم أكن أقصد أبدا أنك دخيلة

علينا أو غريبة، فمتى كانت للملاك جنسية أو لغة خاصة.. إنه فقط ملاكٌ ينشر جناحيه بالحب أينما يحل.. وإني اعتقد إني اتكلم عن جميع من حولي حين أدعوك بملاكنا، ملاك ثورتنا وحريتنا.. سامحيني ثانية.. (قالها وهو يستدير) هيا بنا.. الحرية أو الموت"..

راقبت مشدوهة ظهره المبتعد وهو يتراقص أمام عيني.. لم أعرف السبب في ذلك إلا بعد أن وجدت قطرات دمع دافئة تملأ عيني وبسعادة تسيل، وأنا أنهض ومعهم أمضي.. ومعهم احاول أن أجد مفتاح قيودي، أن أطلق أسر جناحيّ من سجن نفسي.. وإذ لبست ثانية ثوب المقاتلة، صرت حقا منهم ونسيت كل شيء عن أي شيء آخر..

ولأول مرة رفعت الوشاح عن شعري وتركته حرًا، ثائرًا، متحديًا ظلمة الليل، وهو ينسدل على جبهتي، وتنيره نجوم عيني.. وضعت الوشاح على قلبي كي يمنعه من رؤية ما سوف أفعله، وكي لا يعوقني ضعفي عما أنويه.."

13

لم أكن أعرف كيف ستنتهي هذه الليلة! ولكني لم أحاول التفكير كعادتي.. بل انطلقت معهم قبل أن أسمح لنفسي بالخوف.. كنت كلما أحسست برعشة تتسلل إليّ، نفضتها جانبًا وأنا أقول لنفسي: "سأفكر بعقلي عندما أعود".. ثم بابتسامة ساخرة أكمل بصوت خافت: "إذا عدت"! كانوا ينسلُّون في صمت، مجموعة تلو الأخرى، متشحين بالسواد، يتّسحبون في صمت الأفعى.. رافقت إحدى تلك المجموعات، واعطاني (غسان) مسدسًا لكن بأوامر صريحة ألا اقاتل، فلقد كان دوري بعد المعركة أهم من ذلك بكثير، ولكنه أصر أن أحمله خوفًا من أن يواجهني أحدهم بهجوم مباغت.. لم أحاول التفكير أيضًا، دسسته في جيبي، وانطلقت معهم.. وصلنا إلى المعسكر الذي تخيم عنده قوات الحزب الحاكم، ومن وراء الأشجار بدأ الزحف الصامت بعد أن أمرني جاسم بالإحتماء خلف شجرة وبألا أتقدم أكثر من ذلك.. راقبتهم يتسللون وهم يزحفون وأصوات مخمورة وغناء تتسلل من المعسكر إلينا.. كان قلبي يدق بعنف وأنا أرى جنود

الحراسة يعطون ظهورهم إلينا، وهم يراقبون بابتسامة متراخية العبث الذي انغمس فيه زملاؤهم، ومن حين لآخر يلتفتون بنظرة لامبالية للتلال من حولهم.. كان التراخي واضحًا تمامًا عليهم، تأكيدًا لما ظنوه من كسر شوكة الثورة بالهجوم الذي قاموا به مبكرًا ذلك اليوم.. ولكن فجأة! لمحت أحدهم يتخلى عن تراخيه وينتصب قائمًا، وهو يحدق في الظلام الزاحف نحوه، وكأنه يحاول أن يكشف أستاره.. التفت إلى زملائه في تفكير، فوضعت يدي على فمي لكي أكتم صرخة فَزِعَة كادت تنطلق منه، وأنا أراه يفتح فمه ويكاد يطلق صيحة محذرة، لولا أني رأيته فيما يبدو يتردد، ثم يقرر إستكشاف الأمر بنفسه، إذ ثبّت بندقيته على كتفه، وسار للأمام ليرى مصدر تلك الحركة التي ظن أنه رآها.. راقبته يتقدم في إتجاهي وقد سمَّرني الفزع في مكاني وأنا أظنه يراني كما أراه، لولا أن رأيت شبحا أسودًا ينتصب خلفه، وبحركة واحدة على رقبته رأيت ذلك الجندي يسقط في صمت.. وكأنما كانت تلك إشارة البدء.. فلقد رأيت فجأة زجاجات الوقود، والقماشة المشتعلة تملأ عنقها ترتفع فجأة كما أوقدت فجأة، وبإيقاع متناغم

يحاصر المعسكر بأكمله، تُلقى إليه فتشعله جحيمًا!! تصاعدت الصرخات الفزعة المحترقة، والتي كانت تصل لأسماعي، وقد عجزت عن أي شيء إلا أن أرتجف صامتة في مكاني، ذلك الصمت الذي لم يقطعه إلا أنفاسي اللاهثة وتلك الصرخات الرهيبة التي ملأت سكون الليل..

كان كل من يحاول الهرب أو الخروج من ذلك الجحيم تتلقفه رصاصة متربصة تسقطه في صمت.. لم تستمر المعركة أكثر من ساعة أو ساعتين، لست أدري، ولكنها كانت بالنسبة لي وكأنها أيام.. ومع أضواء الفجر الأولى راقبت رجالنا وهم ينتشرون في كل أرجاء المكان، وينهون بالأسلحة البيضاء ما لم تنهه النيران أو الرصاصات.. نفّضت الذهول عني، وسارعت أنا أيضا لأساعد من يحتاجني، وبينما أنا أسير وسط تلك الجثث والأشلاء التي تناثرت حولي في كل مكان، إذ أمسكت يد لزجة من الدماء بقدمي فجأة، وكادت تسقطني من الفزع، ليس من قوتها إذ إنها كانت يدًا واهنة جدًا، التفت فوجدت جثة مشوهة محروقة، تمسك قدمي في ضعف وأنين خافت يتسرب من بين

شفتيها.. أسرعت إليه وانحنيت عليه، فبادلني النظر بعين واحدة إذ كانت الأخرى قد أفسدتها النيران.. "ماذا تريد.. هل تفهمني؟ انتظر، سأحاول أن أساعدك.." . لم يستطع الكلام، ولكنه أشار إلى فمه إشارة عاجزة، ولسانه يخرج منه لاهثًا.. فهمته فورًا، فأسرعت أحلُّ إناء الماء من على كتفي، وأنا انحني عليه لأسقيه، لولا أن انتزعته فجأة من بين يدي يد أحد الجنود وهو يصرخ فيّ قائلًا: "هل جئنت لتساعدي أعدائنا..؟ إنه لا يستحق إلا هذا.." . ورأيته والسواد يملأ وجهه، ونظرة إنتقام وحشية تطل من عينيه يرفع سكينه التي تلوثت حتى مقبضها بالدماء ليغمدها في صدر تلك الجثة التي طلبت مساعدتي.. لم أشعر بنفسي إلا وأنا أرفع مقبض مسدسي، وأهوي به على رأسه فأصابته في ذقنه وجعلته يترنح.. كانت الضربة قوية، ولكنها لم تكن كافية لإفقاده الوعي وهو ينظر إليّ مذهولًا مرتابًا، ويحول إليّ سكينه ويقول: " أيتها الخائنة.. ما ذلك الذي تفعلينه؟" قلت (بصوت صارم أدهشني أنا قبله، إذ لم يفضح الخوف الذي ملأني لمرأى السكين مصوبة إلى صدري): " أقسم لك بكل ما أؤمن إنك إن لم تبتعد عن

ذلك الرجل المسكين لأفرغن ذلك المسدس في قلبك.. لقد انتهى كل شيء.. ألا تفهم؟ ما بقي من هؤلاء الرجال شيء تخشون منه..". في تلك الأثناء، جذب ما حدث إنتباه الرجال من حولنا فتجمعوا منصتين، فقلت: " إن حاول أحدكم ثانية منعي من القيام بواجبي الذي أتيت من أجله، قسمًا لأرحلن فورا دون أي تردد.."

فتقدم(غسان) ووضع يدًا مهدئة على كتف ذلك الرجل الذي قمت بضربه، وكاد أن يقول شيئا لولا أن صرخ أحد المقاتلين فجأة: "من هنا يا رجال.. تعالوا انظروا".. فالتفتنا إليه جميعًا، ووجدناه واقفًا بجوار باب أرضي فيما يبدو أنه سرداب؛ أسرعوا إليه، ولكني تجاهلتهم جميعًا، وانحنيت ثانية على الرجل المصاب وأنا أطلق تنهيدة عميقة، والذي كان ما يزال يثبت عينه الوحيدة عليّ، مددت يدي إليه بالماء، ولكنه لم يبد أيَّة حركة تدل على إنه يراها؛ فارتفع حاجباي فجأة بإدراك، وارتسمت على وجهي ابتسامة ساخرة، لست أدري كيف؟ ربما انعكاسًا لسخرية الموقف، مدّدت يدي وأغلقت عينه الوحيدة وأنا أقول لنفسي: " أهكذا رحلت عنا سريعًا؟؟" وإذ انتصبت واقفة،

استرعى إنتباهي صيحات البهجة والانتصار تتصاعد من الرجال حولي، حوّلت إليهم نظري فوجدتهم يحملون أربعة من الرجال على الأعناق، وفي مقدمتهم لمحت قامة طويلة تعرفتها فورًا.. وفورًا تنحيت عن طريق ذلك الموكب وإن كان ذلك لم يمنع التقاء أعيننا -أنا ومختطفي الغامض (منذر)- بنظرة صامتة طويلة، أنهيتها أنا بسرعة بأن استدرت مبتعدة لولا أن لمحتني (إيتاء)، فأسرعت إليّ معانقة وهي تقول في فرحة غامرة: "وجدناهم يا (عائشة)، وجدناهم في سرداب تحت الأرض، رباه! الآن فقط أشعر أننا حقا قد انتصرنا".. ابتسمت في وجهها ولم أعلق، ثم بتلويحة سعيدة منها تركتني، وأسرعت لتشارك في الموكب السعيد، فاستأنفت سيري شاردة كي أباشر جراح الرجال..

لم أستطع أن أوقف نزيف دمائهم وذكرياتهم..
وشاهدت الأطفال يموتون قبل أن يعرفوا
بسمة السعادة، ما طعمها؟؟

14

أسندت ظهري إلى شجرة، وانحنيت بقماشة مبللة أنظف قدمي من آثار الدماء العالقة بها إثر إمساك يد ذلك الرجل المسكين لها، لم أشعر بنفسي إلا وقطرات دمع كبيرة تتساقط على يدي من عيني، لم أكن أدري لماذا أبكي، كانت أصوات الفرح تصل حتى إلى مكاني المنعزل هذا، ولكني كنت عاجزة عن أن اشارك فيه، أحسست وكأني غريبة في حديقة غرباء.. غريبة تبكي.. ولماانتهيت من تنظيف قدمي، أسندت رأسي إلى ركبتي اتأمل السماء.. كان السحاب يسير بهدوء فيها، لا يعنيه من أمره شيء، ولا يعنيه أين توجهه الرياح، ولا متى يبكي أمطاره دون حزن، كقطرات تلمع في عيون جميلة، أو بثورة وتدفق كغضب رجل مجنون.. كنت اتأمل ذلك كله، وأبحث عن أثره في نفسي، فلا أجد شيئًا، لم أكن أشعر إلا بخواء قاتل داخلي، ببرودة أشبه بالموت، حاولت أن أجد داخلي شيء من الانتصار أو الفخر أو حتى الرضا عن النفس، ولكن عبثًا، بل والحقيقة، وجدت شعورًا واحدًا مسيطرًا، أعرفه على الرغم من محاولتي إنكاره، وهو الكره والرثاء لي.. أغريب

هذا؟؟ لا، ليس غريبًا، لقد سئمت طوال عمري نفسي الغريبة تلك، تشتعل غضبا وثورة ورغبة في التحدي، وتشحذ كل الهمم والمهارات داخلي عندما تكون قضايا الغير هي ما يقف أمامي، تدفعني وانطلق مدافعة، متحدية، مقاتلة، حتى ليظنني الآخرون شعلة من النار.. أما إذا كانت قضيتي أنا، مشكلتي أنا؛ فلا أجد بداخلي أية شرارة صغيرة أو حتى سخونة رماد، يتملكني شعور غريب باليأس والاستسلام، وأنا أشعر بالدنيا كلها كأنها خاوية حمقاء، ولا يوجد أحمق منها إلا من يجري خلفها، ولعل ذلك يفسر الفشل الذي لازمني في حياتي الشخصية، الاستسلام والحزن اللذان أصبحا عنوانًا لحياتي.."

- "عجبًا، أيبكي الأبطال؟؟"

انتفضت من أثر المفاجأة عندما سمعت ذلك الصوت خلفي، استدرت فرأيته -(منذر)- فلا شعوريًا عبست وأنا أقول: "أهو أنت؟ (ثم قلت متحدية) وما أدراك أني أبكي؟ إن هو إلا الهواء البارد الذي يجعل عيني تدمعان.. (ثم أدرت رأسي بعيدا في حدة وأنا أقول في سخرية) لمَ تركت الإحتفال بنجاة القائد الهمام؟؟

فما كان منه إلا أن تقدم مني في غضب، وأمسك كتفيَّ في ثورة، فشهقت في فزع وهو يهزني قائلًا: "لماذا تفعلين ذلك؟ لقد قدِمتُ إليكِ لأشكرك، لأخبرك أني كنت مخطئًا معك منذ اللحظة الأولى.. (ثم هدأ قليلًا، ولانت يداه على كتفي وهو يقول) ألا تزالين غاضبة مني بسبب معاملتي الخشنة لك عندما أحضرتك هنا أول مرة.. إني لا أصدق؛ فإني لأرى لكِ قلبًا يسع الدنيا بأكملها، ومع هذا أراك لا تزالين تحملين لي بغضًا على تلك الليلة..(ثم تركني وأولاني ظهره وهو يقول) أتدرين أني في ظلمة أسري، كانت عيناك اللائمتان سجنًا أكبر لي، كنت أفكر أنني سأموت قبل أن أخبرك بكل شيء.. (ثم نظر إليّ قائلا) لست أدري لمَ تتحاملين عليّ هكذا؟ إني لم أكن يومًا ذلك القائد الهمام الساعي للمجد كما تحاولين أن تصفيني، لم أكن إلا طفلًا ضعيفًا، وقفت عاجزًا أمام النيران وهي تحرق أمي وأبي، ظهر عجزي وأنا أتمنى معجزة تأخذني مع أهلي، أو أن يكون كل هذا كابوسًا سأفيق منه، والله -كما ظننت وقتها- يصمُّ أذنيه عن صرخاتي.. لم أكن يومها إلا وجهًا في التراب وجسمًا ينتفض من الحمَّى، وأنا أصرخ رافضًا الدنيا بأكملها،

وحتى الآن ظلت كلمة "لا" تحرقني، ولكني الآن لديّ الشجاعة أن أقولها بصوت عال، علّها توقظ من حولي، وتخبرهم إلى أي مدى يؤلم جرح الهوان، قد تظنين أني إنسان قوي، لأني أجمع كل هؤلاء حولي، قد أكون كذلك فعلًا، ولكن في أوقات كثيرة عندما يسكن الليل، ويهرب مني النوم على الرغم من تعبي، اتمنى لو عادت إليّ أمي لتضم إلى صدرها رأسي المتعب، وتخبرني أن الغد سيأتي بأجمل شمس، صحيح أن حولي كل هؤلاء، ولكن أحيانًا اتساءل إلى متى؟ إلى متى ستظل روحي هائمة في السماء بين الأشجار، تضيع صرخاتها وسط هدير المدافع وأصوات القنابل، وأحيانًا أخرى كثيرة أشعر أني أعدو وأعدو خائفًا، لا أستطيع أن أقع أرضًا، لا أستطيع أن ألتفت للوراء، لا أستطيع حتى أن أعترف أني خائف، واتمنى من كل قلبي ساعتها أن يقف في طريقي إنسان - إنسان أستطيع أن أثق فيه- يضمني إليه، ويوقظ قلبي الثائر على شيء أجمل من الثورة، ولكن كل هذه أحلام، أبعد من أن ألاقيها، ستكون نهايتها غالبًا رصاصة في ذلك الرأس أو ذاك القلب.. ثم يواصل آخر طريقي، يكون قد وجد في قلبه شجاعة الرفض.. رباه!

إني لست قائدًا، إني إنسان ضعيف، ضعيف"..

كان يتكلم في ثورة وانفعال، ولمعة دموع طفل يائس مذعور في عينيه، وأنا أحدق في وجهه مأخوذة.. ودون أن أدري، وجدتني أمد إليه ذراعيّ، وآخذ رأسه المرتجف على صدري، أهدهده في حنان، وأسند رأسي إلى شعره وأقبل جبهته، حتى أحسست بارتجافته تهدأ، وإذ به يرفع رأسه إليّ، وفي عينيه بريق هائل من الحنان وهو يقول بأمل: "عائشة!"

تغيير نظرته تلك من طفل بائس مذعور، إلى نظرة رجل لامرأة، أفزعتني وجعلتني أدرك فداحة ما فعلت؛ فانتفضت متراجعة إلى الوراء، وكأنما صعقتني كهرباء، أبعدت ذراعي عنه في سرعة حتى اصطدمت في جذع الشجرة خلفي دون أن أستطيع نطقًا.. فرفع إليّ يدا قلقة وعينان أكثر قلقًا وقال: "ما بك؟ ما الذي حدث؟ "

فلم أشعر إلا وعيناي تمتلئان بالدموع، وبإرتجافة هائلة تعصف بجسدي وأنا أهتف: "ابتعد عني.. ابتعد عني"..

واستدرت هاربة إلى غرفتي، وأنا أبكي في جنون..

15

ارتميت على الأرض في الغرفة المظلمة وأنا أبكي بحرقة، وأنا أرى نفسي أسير في ذلك الطريق نفسه ثانية.. ثانية سيخدعني رجل، ثانية سيغريني الحب أن أدخل من خلال ذلك الباب الذي يخفي وراءه هاوية الدموع، ولكن أبدًا، كلهم سواء، لا يرون في سوى جسد امرأة، انبعثت من داخلي مرارة عميقة جعلت الدموع تهدأ في ثورتها، وتسيل بحزن واستسلام وأنا أقول لقلبي: "لا فائدة أن تنبض داخلي محتجًا، لقد قتلتك للأبد.. للأبد..". خائفة من الحب..؟ نعم، أنا كذلك، أصبحت أخشى على قلبى من العذاب، أريده أن يبتعد عن كل ما يسبب له الألم، فلقد أصبح ضعيفًا تمزقه ضرباته، وتجعله يترنح يمينًا ويسارًا، لا يدري له مستقرًا، أصبحت أخشى لومه ومرارته التي ستقتلني إن فشلت ثانية..فشلت ثانية..؟ هل سأتحمل هذا الفشل؟ هل سيتحمله قلبي؟ أحس به يرغب في الحب ويتوق إليه ولكنه خائف، خائف من الحب، خائف أن يتذوق عذوبته اليوم، وتحمله أحلامه إلى السماء لتغرقه مرارة الفشل غدًا، وتهوي به من قمة أحلامه

وهناءه.. إني أعلم ما يريده، إنسان يضمه بشدة تفجر دموعه الحبيسة، إنسان لا يهمه محاولات التخلص من هذا العناق، لأنه يثق أن هذه المحاولات هي عن خوف.. إنسان يهمس في أذني:"لا تخافي، إني معك، لن أتركك، لقد انتهى العذاب وانتهت الآلام، رباه!! ما أعذب الأحلام وما أقسى الحقيقة.."

وفجأة، وبينما أنا على هذه الحالة من الضعف، سمعت طرقات على الباب حاولت تجاهلها، وأنا أشعر أن آخر ما أستطيع احتماله هو شخص يراني، وأنا على هذه الحالة من الضعف، ولكني سمعت صوته، نعم، صوت ذلك الرجل الذي آلمني بشدة، حين حاولت إنتشاله من آلامه، لم أره رجلا وقتها، كان مجرد طفل، باكٍ، ضعيف، مرتجف.. سمعته يقول:" أفتحي لي الباب أرجوكِ، لست أدري ما الذي حدث؟ كيف أخفتك، وجعلتك تجرين بعيدًا، أفتحي لي أرجوك..

في البداية، عندما سمعت صوته يناديني، حاولت ألا أجيب؛ أخفيت وجهي بين يديّ وحاولت -عبثًا- أن أمسح دموعي.. ثم وجدتها -دموعي نفسها- هي التي تشدني للباب، وجدتني أفتحه، وأنا اترنح تحت وطأة الحزن والإرهاق، وإذ واتتني الشجاعة أن أرفع وجهي إليه، كان أول ما طالعني منه عيناه، بحر من الحنان جعلني اتمنى لو أغرقت نفسي فيه، أغلقت عيني في ألم وأنا أخشى أن أعيد فتحهما فأرى الحنان قد ذهب بعيدًا، كما ذهبت كل السعادة من حياتي.. تقدم مادًّا يديه إليّ في بطء، فتراجعت في ذعر، فتوقف وقال: "لا تخافي أرجوك، هيا معي للخارج، سيريحك الهواء المنعش"..

تقدمته في بطء للخارج، ووجدت نفسي أسند ظهري إلى شجرة، ثم أهبط ببطء للأرض، أسندت رأسي إلى جذع الشجرة، وتأملت السماء في صمت، ارتسمت ابتسامة هازئة على وجهي، وأنا أمسحه بظاهر كفي واتأمل آثار الدموع عليها، والإبتسامة الساخرة تتسع على وجهي، جلس بجانبي وهو يقول بقلق: "تكلمي، قولي شيئًا.. اعتبريني صديقك"!!

تقارب حاجباي في دهشة وألم وأنا أقول: "صديق؟ منذ زمن بعيد لم أسمع تلك الكلمة حتى ظننت أني نسيتها"..

قال: "حسنًا، سأبدأ أنا.. أتدرين ما كانت بداية الحكاية؟ خلف تلك التلال البيضاء كانت بلدتي، أمام شجرة التين العجوز التي تقف وحيدة تحت أشعة الشمس اللافحة، كان بيتي وخلفه السوق،

كنت أعدو حافي القدمين في سرور مع رفاقي، والرمال البيضاء تتخلل أصابعي.. خلف تلك التلال البيضاء تركت طفولتي ومرح شبابي.. تركت خلفها حبي الأول الذي فقدته مع مجيء الليل، حلّ الظلام بسرعة لم أتوقعها.. وحال ذلك الخط اللعين ما بين جسدي وروحي..أخذ ذلك الخط مني طفولتي، وشبابي، وعذوبة ثمار شجرة التين العجوز"..

قلت (في دهشة وقد أنستني حكايته دموعي): "أي خط هذا أنا لا أفهم؟؟"

قال: "الخط الوهمي الفاصل بين الحرية والاستعباد، بين العيش بكرامة والعيش مهانًا. مازلت أسمعها في أحلامى، وهي تنهر ثمارها

وتمنعها من الظهور، حتى لا يتمتع بها من فصل الروح عن الجسد، أصبحت شجرة التين العجوز تقف جرداء وحيدة تحت الشمس اللافحة، ولا ثمار لها إلا دموع ترتجف بحزن في عين كل منا، ونحن نقف نتأملها من بعيد، من خلف الخط اللعين.. دعك مني، هيا تكلمي، إنه دورك"..

قلت: "عن أي شيء تريدني أن أتكلم؟ "

قال: "عنك..أريد أن أسمع كل تفاصيلك"..

أغمضت عيني وقلت:" أنا لا أعرف كيف أتكلم، منذ زمن بعيد لم اتكلم، في البداية لم أجد من يسمعني، والآن لا أجد كلمات لأقولها"..

مد يده وقد ملأ الحنان وجهه، ومسح بها على تقاطيع وجهي المتألمة المقطبة، يحاول أن يلينها بيده، وهو يقول بصوت خافت: " أغمضي عينيك وإنسي كل شيء، إنسي ما حولك، أخبريني كيف كنتِ وأنت طفلة، كيف كبرت؟ أتزوجت؟ أخبريني بكل شيء"..

قلت (بصوت متعب): لست أتذكر شيئًا عن طفولتي، لست أتذكر كوني طفلة، ولا أدري لماذا!! إن ما أتذكره وأنا اتأرجح بين الصبا والأنوثة هو كوني كنت دائمًا أعيش ورأسي بين السحاب.. كان منظر السحاب السابح في هيبة وعظمة في السماء يأسرني، ويجعلني لا أستطيع تحويل عيني عنه، سحاب رماديّ وسحاب أبيض يطفو في سكون وكأنه يدعوني إليه.. وكنت دومًا أُلبِّي الدعوة بروحي، وأعيش مع السحاب بخيالي، كانت أعز أمانيّ، والتي لم أستطع أبدًا أن أقولها لأحد، هي أن أعيش على السحاب ما تبقى لي من عمر، أطفو في نعومة في السماء.. حتى عندما بدأت أنمو ومشاعر الأنوثة تملأني، كنت أحلم أن أتزوج أمير السحاب.. أنظر إليه فأشعر بسمو مكانته، والأجمل من ذلك أنه سيجعلني أعيش في المكان الذي اختارته روحي دائمًا، وانتظرته بكل أحلام الأطفال ويقينهم، انتظرته، كنت أشعر في أعماقي أن أميري الوسيم يراقبني، وسيأتي إليّ يومًا كي يحملني معه إلى قصره بين السحاب.. وانتظرته ولم يأتِ!! وبينما الأيام تمضي.. أحسست بوطأة الانتظار، وفي لحظة يأس مريرة، قررت أن أغمض عيني

وروحي وأهجر السحاب، كذّبت إيماني، وكرهت أميري الذي لم أره، وبكل ما يعطيه اليأس من قوة، أخذت نفسا عميقا، وألقيت نفسي من فوق السحاب إلى لُجة الدنيا والأيام، ولكن لست أدري، لمَ حتى عندما أصبحت من أكبر أدعياء الواقعية، كان داخلي يحنُّ لأميري، وأنا اتمنى لو لقيت مثيله بين البشر، ووجدته، أو اعتقدت أني وجدته، أسكرتني كلماته وحملتني عاليًا وأنا أظن أن أميري الآن بين يديّ.. ولكن من أول يوم، ومن أول قبلة تحول الأمير الجميل إلى ضفدع!! "

عندما وصلت إلى ذلك الحد من كلامي، أحسست وطأة تلك الأيام والذكريات، فإحتبس صوتي، وتسللت دمعات مرتجفة من تحت جفنّي المغلقين.. فمد يده في صمت وحنو، وأسند وجهي إلى صدره.. وعفوًا أيتها النفس اللوامة، فبينما أنا على هذه الحالة من الضعف، لم استطع إلا أن أسند وجهي إلى صدره وأجهش بالبكاء.. كنت أشعر بضعف رهيب يهزني، بحنين قاتل إلى أميري الذي دوما حلمت أنه يراقبني ويحميني، وسيأتي إليّ ليحملني من هوة الألم إلى السحاب، لم استطع إلا أن أدفن وجهي في صدره وأحلم لو دامت تلك اللحظة

للأبد... سمعت صوته الحاني وهو يتسلل عذبًا إلى أذني وهو يقول: "وماذا حدث بعد ذلك؟"

قلت (في صوت متعب مرير، وأنا ما أزال أسند وجهي إلى صدره): "حدثت كارثة، فقدت طفلتي، وطلقني، لفترة من الزمن لا أدري مداها، فقدت إحساسي بكل شيء، كفرت بكل شيء، كرهت كل شيء، كنت أتمنى لو استطعت أن أدمر كل شيء، كما تدمر داخلي كل إيمان، كما ضاعت مني أحلام الطفولة، ولكني كنت أضعف من ذلك، وفي ليلة شتاء، جاءني نداء.. فنظرت، ووجدت صديقي القديم - السحاب- يدعوني إليه، لم يكن يحلق متجاهلًا إياي كعادته، بل بدا وكأنه يدعوني للحاق به، رفعت إليه عينيّ الذابلتين من كثرة البكاء وأنا شاردة، كنت أشعر بشيء قديم يصحو داخلي، شيء ضئيل، جميل، يزيح تراب القبور الذي تراكم داخلي في إصرار ليوقظني.. حدّقت بيأس إلى السحاب، وقد أحسست بالعجز، وهتفت: "لا أستطيع، لم أعد أستطيع التحليق... لم أعد أستطيع أن أحلم.. لم أعد أعرف كيف أحب.. لا أستطيع، لا أستطيع.. ولكن كان هناك شيئًا يولد داخلي من

جديد، بقايا المقاتلة القديمة، وهي تبعث من الموت، وجدت شيئًا داخلي يهتف قائلًا: "أهربي، أهربي بعيدًا عن تلك الذكريات، أهربي بعيدًا عن تلك الأيام والسنين، بعيدًا عن هؤلاء الناس الذين يعرفونك.."

ونهضت، وبكل ما استطاعته ساقاي الكليلتان من قوة، هربت من بلد لبلد، أبحث عن نفسي، أبحث عني بعد أن تهت مني.. وحتى الآن لم أجدني..

ثم تنبهت إلى ذلك الكلام الغريب الذي أقوله، فرفعت رأسي عن صدره، وشبح إبتسامة ضعيفة يرفرف على شفتيّ وقلت: "إنك لم تفهمني، أليس كذلك، لابد وأنك تعتبرني مجنونة"..

فقال والحنان والأسى في عينيه: "اعترف أني لم أفهمك، ولكن صدقيني أحسست بك، أغريب هذا؟ أن أشعر بشيء لا أفهمه، ولكنه هنا، صدقيني".. قالها وهو يشير إلى قلبه، ويعيد رأسي في رفق إلى صدره، واستسلمت له في ضعف وأغمضت عيني وقلت في نفسي:

"سأفتح عينيّ غدًا فأجد كل هذا حلمًا، حلمًا من أحلام السحاب، أما الآن فأنا متعبة، متعبة..

*****

وكأني بين النوم واليقظة، أغمضت عيني، أحسست داخلي أمنية، رغبة، حلم من أحلام النهار التي يستيقظ منها الإنسان بابتسامة يائسة.. تمنيت أن أسند رأسي إلى كتفيك وأبكي، أبكي لأخرج ذلك الشلال الجارف داخلي، أريد أن أبكي ضعفي، أبكي وحدتي، أبكي عذابي لنفسي.. لا أعتقد أني سأجد ما أقوله.. ولكن إحساسي بكتفك الحنون، ورأسي يستند إليه سيفوق ما تمنيته.. شهقات من البكاء داخلي تعبر عن حاجة ولهفة وأنين، تعبر عن ألم قاتل يسري في نفسي ويعجزني عن التنفس، لمعة دموع - تأبى أن تسقط - يمنعها كبريائي من السقوط.. ذلك الكبرياء الذي اتمنى أن أحطمه على كتفيك، كما اتمنى أن أحطم كل يوم يائس حزين من أيام عمري، أحطمه وأعود طفلة صغيرة تنظر إلى الحياة بإبتسامة من لم يعرف حزنًا ولا فراقًا ولا ألمًا.. ودعني.. دعني استمر في أحلامي، فأشعر بذراعيك تحوطاني لتشعرني

بأمان فقدته منذ زمن بعيد.. أشعر أني اتقدم بخطى ثابتة نحو هوة سوداء مخيفة تستعر الدموع في أعماقها، إنها تدعوني إليها، ونداؤها يسري مثل السحر الأسود في كياني.. خائفة أنا، والرعب يسري في قلبي، ولكني اتقدم واتقدم.. إستغاثة في عيني، إلتفاتة يأس لعلّ أحد ينقذني، واتقدم... فدعني أحلم بذراعيك تحوطانني لتنقذني من ذلك الرعب الجاثم أمامي، دعني أشعر بذراعيك حولي تحبطان أية مقاومة مني لألبي ذلك النداء الأسود، دعني أشعر بهما وهما يمنعانني من السقوط ويرفعانني عاليًا لأرى السماء الواسعة ثانية... ودعني أشعر أني انهار بين ذراعيك وقد غلبني التعب، وأخذت دموعي تتساقط لتخبرك عن عذابي وخوفي وألمي الذي ظننت أني خلّفته ورائي، فإذا به متعلق بأذيال ثوبي.. ودعني أشعر بذراعيك حولي لتخبرني أن هناك من يحبني، من يهتم بأمري، من يحتاجني، لتخبرني أنه عندما يأتي الليل الأسود المخيف سأجد نجمًا يحيط ضياؤه بحياتي، ويدفع بعيدًا ظلال الوحدة السوداء.. خمسُ دقائق، خمسة دقائق فقط أحتاجها، أبكي فيها بين ذراعيك، وأبكي حتى أنام من شدة التعب الذي يعصف بكياني،

أنام وأنا مطمئنة أني لست وحيدة، هناك من يهتم لأمري ويرعاني، أحس بكفه الحنون على شعري، على وجهي لتزيل آثار الدموع المتساقطة.. أنام وأحلم، إنها خمسة دقائق من الجنة، إذ يستمر الزمان حيث لا وجود، لا مدى، لا أبد، ولا نهاية.. حيث لا يوجد تعب أو قلق أو خوف من إنتهاء السعادة أو ذهابها.. وأعدك أني بعدها سأنهض وسأستأنف طريقي.. ولكني اعترف لك أني سأشعر يومها بالحنين.. حنين جارف، عذب، كلما احتجت لذراعيك، وسأنظر إلى الوراء وأقول (وومضة ألم تسري في قلبي): ليتها كانت خمسة دقائق من الجنة..

16

استيقظتُ في اليوم التالي، مكثت في الفراش لوهلة لا أدري أين أنا، كان آخر ما أتذكره عن ليلة أمس عندما أسندت رأسي إلى كتفه وموجات الألم والإرهاق تعصف برأسي..لا أدري كيف انتقلت من تلك اللحظة إلى غرفتي، وإذ تذكرت ليلة أمس شعرت بأمواج من الدم الحار تتصاعد إلى وجنتي، وأنا احاول عبثًا أن أتذكر ما حدث.. كان جسدي كله يؤلمني، فألقيت برأسي ثانية إلى الوسادة، وشعرت أني لا أريد التحرك من الفراش، شعرت وكأني مسافر عاد أخيرًا من رحلة طويلة، شعرت براحة غريبة؛ إذ أحسست أخيرًا أن طوفان الدموع الذي طالما ما جثم على قلبي قد انفجر وذهب وتركه حرًّا، نابضًا، طليقًا.. تنهدت تنهيدة طويلة، وأنا أحدق في الغرفة الفاخرة حولي، كان ذلك أيضا تغييرًا غريبًا بعد الأطلال والبرودة التي اعتدتها خلال الأيام الماضية، من كان يصدق إن حركة يائسة واحدة كان من الممكن أن تسبب هذا التغيير وتقلب موازين الأمور هكذا..

كان الثوار الآن قد استولوا على نصف (تعزيز)، وأصبحوا قوة لا تستطيع الحكومة الإستهانة بها، أو رفض مطالبها.. صارت المسألة هي مسألة وقت وترتيبات فقط، قبل أن يرضخوا لمطالب الثوار في أن يكون الحكم بيد الشعب وأبنائه، وفي أن تحكمهم حكومة تعبر عنهم.. لست أدري، لم أكن أظن أني سأمكث هنا حتى أرى ذلك اليوم، وفي حركة مفاجئة قمت من الفراش مسرعة، أردت أن أغادر تلك الغرفة لأستمتع بالشمس، بالفرحة في أعين الناس، بضحكة الأطفال وهم يبنون أحلى أيام طفولتهم... وإذ وقفت أمام المرآة، طالعتني إمرأة أخرى غير التي كنتها بالأمس، خوف غريب غمرني فجأة، وأنا أحدق في ابتسامة المرأة التي واجهتني، شعرت وكأني أحدق في واحدة أخرى، نعم، تشبهني وتحمل اسمي، ولكنها ليست أنا،أحسست وكأني اراقب أخرى، اراقب إبتسامتها وفرحتها وأدهش لها، كما تراقب هي خوفي وتشاؤمي وتعجب لهما... وانتزعتني من أفكاري الغريبة تلك طرقات مرحة على الباب، وصيحة عالية بصوت (منذر) تقول: "ألن تستيقظي أبدًا؟ إنها العاشرة، تعالي وافرحي باليوم الجميل معنا"..

وارتجف صوتي وأنا أقول: "دقيقة واحدة وسأخرج إليك"..

إذ عادت إليّ فجأة كل ذكريات الأمس القريب جدا والبعيد، تذكرت كيف أني - وربما للمرة الأولى في حياتي- وجدت من أبكي على صدره، وأخرج معه حزنًا كالجبل سكن داخلي وأهمد قلبي.. كان حديثي معه في الليل وظلمته وسكونه ممكنًا، أما الآن، ونور الشمس ودفؤها يلفنا، لم أعرف كيف سأواجهه.. صامتةخرجت، ومشيت إلى جواره في سكون أتأمل ذلك الجانب من المدينة الذي لم أره أبدًا، والذي أدهشني جماله، إذ قارنته بالفقر والأطلال اللذين شهدتهم قبلًا.. وعلى ضفاف النهر سرنا معًا، وأنا واضعة يدي في جيبي حتى أتفادى يديه، عيناي على الطريق تحت قدمي، حتى أتفادى عينيه.. سمعته يقول ضاحكًا: "إن صمتك هذا غريب، إنك بذلك تحطمين شهرة النساء بكثرة الكلام. أخبريني بماذا تفكرين؟" (نظرت إليه بجانب وجهي، وابتسمت ابتسامة حزينة، ثم أدرت رأسي بعيدًا.. فتابع قائلا) أخبريني، ما الذي تخفينه في ذلك الرأس القلق؟؟ "

فقلت بحرج: "أخبرني ما الذي حدث بالأمس؟ لقد كنا نتكلم وآخر شيء أذكره هو كوني استيقظ في حجرتي متعبة، وكأني خرجت من معركةحامية، إني لا أذكر حتى كيف عدت لغرفتي!

فطالعتني منه نظرة عابثة زاد منها إحمرار وجهي وقال: "أحقا لا تذكرين أي شيء؟؟ "

وجدتني اتعثر في ثيابي من شدة الارتباك وقد تحول وجهي إلى ثمرة طماطم قانية وفي ذهني تدور أسوأ الظنون.. وقلت: " لللا.. ماذا حدث..؟"

ووجدته يحوّل عينيه عني ويغمضهما في استمتاع وهو يقول: " لقد كانت ليلة استثنائية..(ثم أشفق عليّ عندما رأى إرتباكي فضحك في مرح وهو يقول) لم يحدث شيء تقلقين منه، لست أدري من أين تأتين بتلك الأفكار السيئة..؟"

فتنهدت في راحة، ووجدتني أضربه في كتفه بقوة وأقول: "إنك إنسان سيء..لقد قصدت أن تجعلني أفكرفي هذا"..

فضحك بمرح وقال:" اعترف بهذا، ولكني لم استطع المقاومة أمام إحمرار وجهك وإحساسك بالذنب، ولكم وددت إستغلال الموقف أكثر من هذا"..

ضحكت ثانية براحة، ولكن أمام مرأى ضحكته، ورؤية وجهه وقد صغر سنين، وكأن خطوط القسوة والمرارة قد انمَّحت من على وجهه، أحسست بألم خاطف في قلبي وشحب وجهي فجأة، وحوّلت وجهي عنه حتى لا يرى نظرة الحنين في عيني..

لاحظ هو ما حدث وأحس بتغيير الجو بيننا، فقال بقلق: "مابك، ما الذي حدث..؟"

قلت: "لاشيء..لا أعرف، لا أستطيع الكلام"..

قال: "لا أوافق على ذلك.. من حق كل إنسان، بل من واجبه أن يُعنى بنفسه أول ما يُعنى.. وأنت طبيبة، أية عناية تلك التي تعطينها للآخرين لو أهملت حق نفسك..؟"

قلت (بدهشة): "ماذا تعني؟؟"

قال: "الذين يأبون أن يتكلموا عن أنفسهم – بالحق- فهؤلاء لا يعرفون أنفسهم ولا يعرفون غيرهم.. ربما لم يُتَح لك قط أن تتحدثي عن نفسك، فأصبحت تشعرين الآن بأن لا أحد يُعنى بما تقولين.. ربما كنت أنت لا تحبين نفسك، وإذا لم تحبي نفسك فلن تستطيعي أن تحبي أحدًا"..

وقفت، حوّلت إليه وجهي وقلت (بعزم مفاجئ وقد سئمت الهروب): "حسنًا!! تريدني أن أتكلم، سأتكلم.. أناأخشاك، وأتمنى لو لم أكن عرفتك أبدًا"..

رأيت الأسى والمفاجأة يرتسمان على وجهه وهو يقول: "ماذا؟" (ثم ضحك بحزن قائلًا) هذا يعلمني ألا أتدخل في أفكار الناس ثانية"..

مسَّ حزنه قلبي فهتفت (نادمة): "لا أرجوك، لا تفهمني هكذا، لقد أخطأت التعبير فقط كعادتي، إنها إحدى صفاتي الحمقاء.. أرجوك.. انسَ ما قلته"..

حدّق في وجهي قائلًا: "إنك لم تخطئي التعبير، فأنا لم أعرف إنسانة يتكلم وجهها قبل لسانها مثلك، أخبريني بما في قلبك، لم لا يزال يسكنه الخوف؟ ممَّ تخافين؟ أمن المستقبل؟ ألا ترين كيف تضحك كل الدنيا حولك؟؟"

وأشار بيده لما حوله في حركة دائرية واسعة، تابعتها بعيني، ثم استقرت ثانية على وجهه، ونبض قلبي مسرعًا وأنا أرى شعاع عينه الحاني وإبتسامته الواثقة.. أحسست في تلك اللحظة أني أراه لأول مرة، أرى وجهه وقد فقد قسوته السابقة وبدا أصغر سنًا، صارت ضحكته - وهو يحيي الناس من حوله إذ يداعبونه بإشارات مرحة على الطريق- وكأنها جزء من وجهه، ولكن كان أجمل ما رأيته، عندما حمل طفلًا بين ذراعيه، قذفه في الهواء ثم التقطه ثانية، وضحكاته تختلط مع صيحات الطفل المرحة، أحسست وقتها إن قلبي يبتسم في حنان، إبتسامة أحسستها في نبضاته الفرحة المسرعة، وعرفت وقتها أن ذلك أجمل منظر قد تراه أيَّة إمرأة، وأكثر مشهد تتأثر به، رؤية رجل يداعب طفلًا، إنها لن ترغب وقتها أن تشاركهما مرحهما قدر رغبتها في أن

تجلس وتراقب جمال الحب، وتشهد ألوانه المرحة وهي تضفي الحياة والسعادة على الوجوه..

" لم أر مثلك في الحياة، يبسط ظله على الذهن ولو غاب عنه، فأثرك أبقى في نفسي حتى منك، من وجودك، كيانك، أهناك أدل من ذلك من كل ذلك التفاؤل الذي أشعر به على الرغم من كل تلك الأطلال حولنا؟؟ " شاهدت كل ذلك في عينيه عندما أدارهما لينظر إليّ ثانية في صمت، فحوّلت رأسي عنه ونبضة مؤلمة في قلبي تذّكرني أني سأترك ذلك كله وأرحل قريبًا، سأهاجر ثانية، سأهرب من جديد إلى حيث لا أعلم..

تنهدتُ تنهيدة عميقة، وأنا احاول التخلص من تلك الأفكار السوداء قبل أن تسيطر عليّ، وأجيب (ضاحكة على نظرة التساؤل في عينيه): "لا تعبأ بكل ما أقوله، إن ما أريده الآن أن أفرح كثيرًا وأضحك كثيرًا، أريد أن اتذكر كل لحظة قضيتها معكم بالبهجة والسعادة والمرح..

شاهدت وجهه يشحب وهو يقول: "أيعني كلامك هذا أنك راحلة؟"

ولست أدري لمَ عندما سمعت تلك الكلمة من بين شفتيه أحسست لها ألمًا حادًا، حتى إنني لاشعوريًا رفعت يدي إلى صدري حتى أخفف من حدته وأنا اتكلف المرح وأقول: "بالطبع، سأرحل، لقد انتهت مهمتي، إنكم ما عدتم تحتاجونني هنا، سأقضي بعض الأيام أجازة هنا، ثم اسافر ثانية إلى مهمة جديدة..

قال (وقد تقارب حاجباه من الألم): مهمة؟ أهذا كل ما نعنيه لك؟ مهمة؟ أهذا كل ما كنت تفعلينه في الأيام والأسابيع الماضية؟"

وأشاح وجهه بعيدا عني، ولم استطع عندها أن اتمالك نفسي، فإن لكل شيء حدودًا، وقد كان قلبي يتمزق تحت وطأة نظرة الإتهام والألم في عينيه، فملأت الدموع عيني وأنا أهتف (بصوت ضعيف): "أليست تلك الحقيقة؟"

فوقف أمامي كي يمنعني من مواصلة المشي، وهو يمسك كتفي بقوة كي يجبرني على النظر في عينيه وهو يهتف بقوة: "أيَّة حقيقة تلك

التي تتكلمين عنها؟ الحقيقة التي أراها أنك ستهربين ثانية، ثانية ستحلقين هاربة بعيدًا عن شعاع الشمس، ثانية ستهاجرين تاركة الوطن..

قلت (بإبتسامة يائسة): "الوطن؟ أنا سأهاجر إلى الوطن، سأعود ثانية لأبدأ من جديد، سأعود ثانية لكي اواجه أخطائي، اواجه ضعفي وحزني، لاصالح روح طفلتي التي تحوم حولي وأجعلها تسامحني لأني هربت وتركت حقها، لقد أخطأت كثيرًا، وتخبطت كثيرًا، ولكن لعل أكبر أخطائي كان حين حاولت أن أهاجر بعيدًا عن نفسي، أن أهرب مني، ولكني الآن سأعود"..

قال (ونداء يائس حنون يملأ عينيه): "عائشة أنظري إليّ، أنا هنا، أنا وطنك، أبقيْ معي ولا تطيري بعيدًا عن حياتي، فتفقد كل معنى وجدته بك، لست أدري حقًا، أأنا أهديك أم أشرد كالمجنون فيك..؟ "

فقلت (بهمس وقلبي ينبض بألم): لا أستطيع البقاء، لا أنكر أن ما جمعنا كان كبيرً، جميلًا، متدفقًا، حلوًا، ولكني عاجزة حتى الآن أن أسمِّيه حبًّا.. سأظل طوال حياتي ألوم نفسي وأشك فيها، وأنا اتساءل

أتراني أتخذك هروبا كعادتي، أحمّلك عبء مشكلاتي وارتاح بين كتفيك من همي؟؟ وكأنني أقول لك: "عاونني إن كنت تجرؤ!!"

فقاطعني (بلهفة) قائلًا: "أنا راضٍ يا حبيبتي، لقد قبلتك كما أنت، أليس هذا ما كنت تريدين وتتمنين..؟ ما أحوجنا نحن التعبين القلقين إلى من يقبلنا على الحالة التي نحن فيها، على من يشجعنا على إتباع الشجاعة..

فقلت (بيأس): "ولكن أنا لا استطيع أن أرضى، لقد سئمت أن أعيش حياتي هاربة، مهاجرة في الظلام، سئمت تعب أجنحتي العمياء، وهي تتخبط في الحياة لأنها لا تعرف طريقها، دعني.. دعني يا صديقي - الذي لم يكن لي مثله أبدًا- دعني أَعُد لأجد نفسي، لأجد (عائشة) وأستطيع أن أعيشها بصدق هذه المرة"..

وكان صوتي قد بدأ يختنق ثانية بالدموع، فخشيت أن أبدأ ثانية في البكاء، وأن ألجأ ثانية إلى صدره، لأني أيقنت جيدًا أني إن فعلت ذلك، فلن أستطيع منه هربًا أبدًا، واعتذرت إليه عن مواصلة المشي معه، وأسرعت عائدة إلى غرفتي ألوذ بها من ضعفي، من نفسي.. ومنه!!

17

وإذ ذهبت في تلك الليلة إلى ذلك الحفل الذي دُعيت إليه، والذي كان مقصودًا أن يكون يوم الاحتفال بنجاح الثورة، لا أنكر أني بذلت مجهودًا كبيرًا تلك الليلة لأبدو جميلة، كنت اتزيَّن أمام المرآة وأنشودة حب وحشية تعزف في دمائي.. غريب أنت أيها الحب.. سمعت كثيرًا عن عذاب الحب، ولطالما تساءلت أي عذاب هذا في نسمة رقيقة بين أثنين، في نظرة دافئة عند اللقاء، في إبتسامة حالمة عند التذكر، في خفقات قلبين يخشيان الفراق.. وتمر الأيام وتخبرني عن العذاب.. العذاب أن أراك أمامي واتساءل إن كنت تراني، أن يخفق قلبي بإسمك ليل نهار، وأنا لا أدري إن كنت حقا تعرفني، أن أجلس بعيدًا أحدق بك وأنا عاجزة، عاجزة أن أذهب إليك لأكون بجوارك إلى الأبد..أن أمنع نفسي من النظر إليك حتى لا يرى كل الناس إنعكاس صورتك في عيني، وفي قلبي..غريب أنت يا حبي؛ تجعلني أراه في كل شيء، أراه يملأ الفضاء من حولي، أراه في كل بسمة رقيقة، في كل كلمة دافئة، في كل شيء.. أسمع طنينًا مجنونًا يسري في أذني، وعبثًا احاول أن أغلقهما،

فإنه ينبعث من داخلي - إسمه- ينبعث من داخلي صراخًا، قويًا، جبارًا، حتى إني لاتلفت يمينًا ويسارًا خوفًا أن يكون هناك من يسمعه.. ولكن لا، فإنه يتحول إلى همس، ضعيف، جبان عندما أراه.. همس..؟ لا، ولا حتى تمتمة شفاه... ألم أقل إنك غريب؛ تعذبني بقوتك مرة، وتعذبني بضعفك ألف مرة... غريب أنت يا حبي، أين ذهبت أحلامي؟.. أصبحت لا أرى إلا صورًا مرعبة لطفلة وحيدة ترتجف، تتقاذفها الريح الباردة، ولا تجد الدفء إلا في دموع تتساقط من عيون متسعة في فزع، تتلفت يمينًا وشمالًا لعلّها تراك... إن أكثر ما يعذبني أنك حقيقي، لست وهمًا ابتدعه خيالي كما أقول دائمًا لنفسي، فدائمًا ما يعلو صوت قلبي وهو ينبض بضعف بصوت أقوى من صوتي: "إنك حقيقي، أقوى وأجمل من أي خيال رأيته"... لطالما حلمت أن أرى نظرة دافئة من عينيك، تلف وتطوف بوجهي لتزيل آثار الدموع، الدموع التي تجعلني أفيق إلى حقيقة هامة، إنك لا تراني، لا ترأني، وعلى الرغم من دموعي فإني أراك، أراك في كل شيء...نعم، غريب أنت يا حبي، ولكن..إسمح لي بالتوقف، أن اتوقف عن التفكير

فيك، لا عن حبك، فإني مازلت أحب الحياة. أحب أن أستيقظ في الصباح وأنظر إلى السماء وابتسم..أحب أن أنام ليلًا وقد احتوت عيناي أجمل صورة وأبكي.. نعم، إنك أنت حياتي، وأنا مازلت أحب الحياة.. ولكني منعت نفسي للأبد، من ساعة أن أحسست بحبك يتسلل بخجل، وعفوية، وبراءة إلى نفسي، إلى كل كياني.. منعت نفسي من أن تتذوق شفتاي مذاق اسمك، من أن تُطرف عيناي عند رؤيتك، من أن تندفع دمائي بجنون عندما ألمحك ولو من بعيد، ولو في أحلامي... عاصية أنت يا نفسي، متمرد أنت يا قلبي...أراك مقبلًا فتتسلل رعشة مجنونة تطوف بجسدي كله، يهتف باسمك قبل أن تهمس به شفتاي.. انادي عليك بنداء صامت، يملأ عيني وتحجبه أهدابي.. تمنيت لو وقفت بجوارك، اتأملك لأرى فيك معجزة وجودي، حبي.. أشعر بهذا كله حين أراك، ويسألونني عن العذاب، فأجيب إنه تحيَّتك العابرة عندما تمر بجواري، تمر وتبتعد، وأحس أني أسقط وأسقط في بئر وهاوية من دموع.. استأنف طريقي بخطوات خائفة، برعشة مؤلمة تسري في جسدي، برجفة قاسية تعتصر قلبي،

وأقول ودموعي تتسلل من قلبي: إني واهمة، إني لا أحبه، لا أحبه. ويتعالى نشيج مؤلم من داخلي: " أنت كاذبة، كاذبة".

ألا رحمة بي يا قلبي، نعم، كاذبة.. وقد أصبحت لا أجد مكانًا للإختباء من نفسي..غريب أنت يا حبي.. وحشيّ، تعربد بقوة وثورة وجنون، كرياح عاتية، ثائرة، تهب بلا عيون، تقتلع من طريقها أيَّة مقاومة، أو إحتجاج.. ولكنك ما تزال حبي، حبي الذي وهبته سنوات طفولتي وأحلام شبابي، حبي الذي وهبته أجمل إبتسامات وأرق دموع، وهبته كياني ليحتويه ويعيش فيه ما بقيت لي حياة...

أحبك بما لا يستطيع إنسان أن يصف، أحبك بإتساع الصحراء ورهبتها، أحبك بدفء أشعة الشمس على جفوني المسدلة، أحبك بقطرات الماء على جبين محموم، أحبك بعذابي في إنتظارك..أحبك وأنا أعلم أني سأنتظر طويلًا، أحبك بلا أمل في غد، أحبك لليوم هذا الذي أعيشه، أحبك لأنك أنت حياتي، وأنا مازلت أحب الحياة..

*****

مرت كل تلك الأفكار على ذهني، وأنا اتأمل في شرود العصير في كأسي، ووجدت (إيتاء) والعديد من الأصدقاء حولي يأتون إليَّ، والموسيقى الراقصة صوتها عالٍ، عالٍ.. وأحسست بوقعها في صدري،أحسست فجأة أني أريد الرقص، أريد أن أضحك وأدور بين السحاب، كان الصوت عاليًا جدًا حتى يجعل مستحيلًا أن تتبادل الحوار مع أي أحد.. نعم، إنني أحب، ولأول مرة يراودني ذلك الإحساس الجارف، العذب، ورأيت الفتاة الخائفة، المترددة، الحزينة، وهي تتحول إلى فتاة جميلة، فاتنة، ولكني لا أهتم كيف يراني الناس، لقد أصبح غاية حياتي أن أعرف كيف يراني أميري..

كنت أدور راقصة، ضاحكة، حتى أوقفتني عن جنوني فجأة يدان قويتان، ووجدت نفسي اترنح وفجأة! وجدتني أحدق في عينيه، عيناه الحبيبتان، وهل ممكن أن يتوقف كل صوت حولنا ولا يتكلم إلا حوار عينينا..؟ وكما ينتهي كل شيء حلو.. وجدنا فجأة أصدقاءنا حولنا، وأصدقاءه يأخذونه بعيدًا، ف يمزاح الفتيان الأحمق، ووجد كل منا نفسه في إتجاه.. لم أر في عينيه إلا الشوق وعتاب صامت،

وكبرياء عنيد، أخبرني- دون كلام - أني آلمته، وأخبرتني دقات قلبى إذ اراقب ظهره المبتعد أني أحبه، أحبه.. تملكني خوف رهيب أن يبتعد ولا يعود إليَّ.. وتعود ولكن ليست إليّ.. كل ما حولك يأخذك مني، وهو حق وعدل.. إن الدور الذي ينتظرك، تاريخك وقصتك أكبر من أن تكون لشخص واحد، فما بالك لو كان شخصًا روحه مشوهة مثلي... أحسست فجأة بأيامي السابقة تعود فتهاجمني فجأة، وعاودتني كلمات زوجي السابق، والتي طالما طاردتني كثيرًا في أحلامى: " كفاني ما عانيته معك، من برودك، كفاني إنك لست امرأة، إنك أرض مشوهة تلد أمساخًا.." شحب وجهي فجأة مع ذلك السيل من الذكريات، وترنحت وأنا اعتذر لمن حولي وأفر هاربة إلى حجرتي..

*****

إن السعيد في حاجة إلى الحب..
وأما التعيس فهو في حاجة إلى الحب والرحمة معًا..
ولماذا أنا تعيسة هكذا..؟
لأنك لا تحبين نفسك، وفي هذا الكفاية..

18

كيف أستطيع أن أصف شعوري وأنا أرى الدمار والخراب يتحولان إلى بنيان وعمائر وحدائق، وكأنما بلمسة من عصا سحرية، كانت المساعدات تنهال على أهل (تعزيز) من كل مكان في العالم، ليحاولوا النهوض من آثار تلك الحرب، كما أن موعد الإنتخابات لتحديد الحكومة المقبلة كان قد تحدد تحت إشراف مراقبين دوليين، صارت الدنيا وكأنها تستعد للإبتسام لهم من جديد.. وكيف أستطيع أن أصف شعوري وأنا اتجول في الطرقات، أملأ صدري بعبق نسيم الحرية التي أحسست إنها تملأ الجو بأنسام عطرة، عذبة، ناعمة.. كنت سعيدة، لا جدال في ذلك، وكنت حزينة، اعترف!! كنت سعيدة وأنا أسمع الضحكات المرحة تملأ الجو، وقد كثرت الأفراح والزيجات، وكأن الناس يحاولون تعويض ما أخذته منهم أيام الخوف والقهر.. وكيف كنت استطيع مقاومة التحيات المرحة التي كانت تنهال عليّ في أثناء نزهتي في المدينة العروس... وكنت حزينة؛ إذ أحسست أن حكايتي في تلك المدينة قد قاربت النهاية، لقد أديت دوري، وثانية

يجب أن أفرد جناحيّ على اتساعهما مهاجرة، وهاربة ثانية حتى لا تنفرد بي الذكريات والآلام القديمة، أكون كاذبة لو قلت إني نسيتها أو بَرِئت منها، حقيقة أنني أشعر أني امرأة أخرى، أقوى بكثير.

عاد قلبي نابضًا ثانية مع الحياة.. شعرت ثانية بجمال الدنيا والبشر والأصدقاء، ولكن لست أدري، لِمَ أحسست أن كل ذلك لن يفلح في أن يجعلني أنسى ما مضى، شعرت وكأن كل ذلك ما هو إلا ثوب جديد حلّ محل القديم، ولكن الجرح في جسدي لا يزال موجودًا، أحيانًا أنساه، وأحيانًا ينبض بقوة وكأنه يأبى إلا أن يعلن وجوده! حقيقة أني كنت أشعر بالحب من كل من حولي، في كلامهم معي، تحيتهم لي، ثقتهم بي.. بل وأني تلقيت عروضًا كثيرة لاستقر في تلك المدينة للأبد، ولكن لست أدري لِمَ أشعر أن رحلتي لم تنتهِ بعد، أشعر بجناحيّ قلقان وكأنهما يتوقان للهجرة ثانية، هاربة من نفسي القديمة قبل أن تعود إليّ. صممت على ذلك، صممت أن أحمل حقائبي على ظهري، واهاجر ثانية لأجد نفسي، أجد ما ضاع مني، أجد الإيمان.. ولكني كنت أعلم داخلي أني في هربي هذه المرة، كنت أحمل معي شيئا جديدًا، وليس فقط

تجربتي القديمة، كنت أفر هاربة من قلبي الذي عاد ينبض من جديد، مطالبًا بالحب والحياة.. عبثًا حاولت إيقاف نبضاته، عبثًا حاولت تذكيره بما مضى، عبثًا سألته ألا يعرضني للفشل ثانية، ولكن عندما رأيته يأبى كل شيء إلا الحب، وكأنه طفل صغير، لم استطع إلا أن اتجاهله، اتجاهل نبضاته المحتجة، وأهرب به بعيدًا، بعيدًا حيث يستطيع أن ينساه... أيام ونفترق، لا أكاد أصدق، فمتى كانت بداية الحكاية حتى تنتهي..؟ لقد مضت الأيام بي مسرعة، وكان لابد أن أصل لتلك اللحظة، لحظة الفراق.. كم أكره تلك اللحظة، لحظة الوداع، ولكن ما يعزيني أني ما كنت لأكرهها لو لم أكن أحبك.. إن كل ألفاظ الوداع مُرَّة، الموت مر، وكل ما يأخذ الإنسان من الإنسان... لم أره من يومها، من يوم أن رفضت حبه، رباه! كيف استطعت قول هذا.. من أكون أنا لأرفض حبًا، لقد رفضت فقط أن أحمّل حياته همومي، وأنا مازلت لا أعرف أأحبه أم لا! ولكن أعرف أني سأفتقد ضحكته الصافية طوال حياتي... أتراه سيأتي؟؟ منذ آخر لقاء بيننا، لم أره، على الرغم من أني تعمدت أن أذهب إلى أماكن كثيرة

قد يكون بها، لعلّي أراه.. ولكنه بدا وكأنه اختفى، لم استطع أن أسأل عنه مباشرة خوفًا من أن يلاحظ أحد شيئًا.. كم أنا خائفة؛ إذ أجلس الآن أحدق في كتاب مفتوح أمامي، تتداخل الألفاظ فيه، ولا أرى منها إلا صورتك، وأنا أتساءل أتراك ستأتي؟؟ خائفة أنا، والخوف يجمد الدموع في عيني، إذ لم يحن بعد أوان البكاء، اتذكر كلماتي الحمقاء وأنا اطالبك أن تعيد التفكير قبل أن يفوت الأوان وأحبك، وهذا ما لم أقله بالطبع..

وإذ أجلس الآن وحيدة، في عيني حيرة وقلبي يتساءل في ضعف: "أحقًا لم يفت الأوان بعد..؟". غريب أمري، أرفض بكل إصرار أن اعترف أني أحبك.. أرفض بكل إصرار أن اعترف أني لا يفارقني خيالك ضاحكًا، صامتًا، مبتسمًا، عنيدًا أو مطرقًا... نعم، أرفض الإعتراف لأني أخشى الحقيقة، أخشى ضعف قلبي أمامك، أخشى حبي لك.. إن حبي مجنون، سِكِّير يغني ويعربد في طرقات صدري، وأنا عاجزة عن إسكاته أو إخضاعه لصوت العقل، إنه طفل باكٍ يسأل في إصرار وتشبث عن صدرك الدافيء: "متى اللقاء؟" ، إنه

سحابة دموع تبغي الهطول على وجهك بنعومة وسكون وحزن، إنه إرتعاشة يد ذليلة تمتد إليك في صمت، وتسألك ألا تتركها وحيدة.. إنه التمرد والإستسلام، إنه النشوة والحزن، إنه تمرد دقات القلب على أوامر العقل والمنطق.. أتراك ستأتي؟؟ أعرف ما سأفعله عندما أراك أمامي، سأغمض عيني وإرتعاشة مجنونة تطوف بقلبي وهو يهتف منتصرًا بإسم الحب. سأوقف ذلك المجنون بيدي لأخبئ نبضاته قبل أن يهتف: "أحبك.. من كل قلبي، أحبك.."

وأعرف ما ستفعله بي الدقائق الطويلة وهي تمر بي شامتة عندما لم تأتِ... أنظر إلى الأرض وكأني خجلة أن أرفع رأسي إلى السماء، حتى لا أرى السحاب واتذكرك، وكأني ساستطيع أبدا أن أنساك.. رباه! أتراك ستأتي..؟

*****

حتى عندما أعلنت لهم جميعًاعزمي الرحيل، بتصميم لم تُلِنه أية محاولات أو احتجاج أو حتى تظاهر بالغضب، رفضت حتى أن يقيموا لي حفل وداع، وبينما أنا أحضّر حقائبي، كان كثيرا ما يطرق الباب،

فأفتحه في لهفة، وأداري خيبة أملي -عندما لا أجده- بإبتسامة ماهرة، وأنا أرى كثيرا ممن أحببتهم وأحبوني، وهم يحملون إليّ التذكارات والهدايا... ومع كل نقرة على الباب كان قلبي يتحول إليه في شوق مؤلم، ولكن عبثًا، فمع نهاية اليوم كانت أعصابي قد تلفت في إنتظار من لم يأتِ..

نعم، أحبه، ماجدوى الإنكار..؟ هل ما أشعر به هو الحب حقًا..؟ لا أدري، إنه شعور يفوق قدرتي على وصفه.. يفوق الحياة والنسيم، وضحكة الأطفال... شعور جعلني استعيد توازني وأماني وثقتي بالناس والحياة... لم أفقد الأمل أبدًا في أن أجدك، كنت في خيالي، وعرفتك فور أن رأيتك، وكل محاولاتي للفرار منك قربتني منك أكثر، وعندما عرفت أنك موجود، فقط موجود في تلك الحياة- حتى وإن لم تكن لي- كان كفيلًا أن يجعلني أنسى عذابي الفائت، وصار ذكرى لا تثير داخل قلبي إلا العجب.. ولكن يجب أن تعرف ذلك جيدًا، الرجل الذي أحبه لن يكون أبدًا خاضعًا، يجب أن يكون سيدًا.. إنني زهرة قاسية، متمردة، لن تستطيع أبدًا يداً ضعيفة أن تحتويني،

إنك يجب أن تحكم وإلا سأتمرد.. إنك يجب أن تريني الطريق لأني لا أعرفه.. والآن، سأجعل همي في الحياة أن أنساك.. قلت لنفسي بتصميم مرتجف: "سأعيش..". ولكن في داخلي كنت أعرف تماما نوع الحياة التي سأعيشها بعد أن فقدتك.

19

ومع أول نور للصباح، حملت حقيبتي وتسللت إلى أول سيارة أجرة صادفتني.. وضعت النظّارة الشمسية أمام عيني، لأخفي حاجتي الملّحة إلى البكاء، لأخفي الدمعتين اللتين تسللتا رغما عني، والسيارة تقطع بي تلك الطرقات للمرة الأخيرة، تلك الطرقات التي شهدت قتالي مع الموت، ومواجهتي لنفسي عند ذلك النهر، وتلك الشجرة التي وجدت عندها أميري.. فتحت النافذة على سعتها، لأترك للهواء الذي عبرها مهمة تجفيف دموعي، وأنا أحاول عبثا تجاهل نبضات قلبي المؤنبة، وهي تقول مع كل واحدة منها: "جبانة، هاربة، جبانة، هاربة." وأنا أرد عليها في صمت: " ستنسيك رحلة الهجرة كل شيء، يكفيك الآن أن تنبض مودعًا، فليس بوسعي لك شيئًا". توقفت دموعي وأنا ما أزال اختبئ خلف نظارتي الشمسية، وأنا أسير إلى حيث ضابط الجوازات في المطار، أسلّم إليه الجواز في صمت، فيفتحه متسائلًا بابتسامة: "عائشة عبدالرحمن؟" فوجدت وجهي -غصبًا عني- يعيد رسم تلك البسمة الهازئة التي ظننت أني نسيتها، وأنا أرد

بتنهيدة: " نعم، عائشة!! " وكأنما صدى لكلماتي، ولكن بنغمة أخرى مختلفة تمامًا، سمعت صوته من خلفي يردد اسمي بنغمة لهفة كلها شوق وحنين..

"عائشة!".. واستدار قلبي بلهفة عند سماع ذلك الصوت الذي طال إنتظاري له، واستدرت بكل حنيني وكياني إليه، ووجدت أمير السحاب أمامي-(منذر)- يمسك بيدي في لهفة ويقول: "أحبك.. هل ساستطيع أبدا التوقف عن قول أحبك..؟ هل استطيع أبدا أن أنسى ما فعلته لأجلي..؟ إنك أنقذتني من ظلام الليل، وحملتني إلى نور النهار الساطع، بالرغم من كل محاولاتي لأيقافك، وبالرغم من خوفي أن تكوني سرابًا، وهمًا جديدًا يحلم به قلبي.. أحبك.. كلمة يقولها قلبي وهو خائف، فلقد فقد يومًا كل من أحب، ولكنها لك، لذلك النور الذي غمر حياتي.. وأعاد إليّ الطمأنينة والثقة، ثقتي أن هناك من استطيع التحدث معه دون خوف أو ألم،لا تتركيني، لا تعيدي قلبي إلى الظلام والخوف.. إنه طفل خائف يتعلق بأذيال الرجاء والأمل، إنك أنت الوطن، إنك لن تهربي ثانية، ولن تهاجري بعيدًا عني أبدًا، إن

وطنك هنا.." وأمسك كفي بقوة وأسندها إلى قلبه، الذي أحسسته مسرعًا، ملهوفًا تحت يدي وسمعته يقول: "إن وطنك هنا، في قلبي للأبد يا أميرتي.."

وعلى الرغم من السعادة التي ملأتني، حاولت أن أفتح شفتيّ محتجة، مرددة كل الأعذار التي تمنعني من ذلك، ولكنه منع محاولتي مسرعًا، إذ وضع يده على شفتي بحنان جعلني أتوقف عن الكلام مستسلمة، ثم تناول وجهي، وأسنده في حنان إلى وطني، إلى صدره، والذي بدا في تلك اللحظة وكأنه يستطيع أن يخبئني بعيدًا عن كل شيء، ويحميني من كل شيء. وصار كل ما يملأ عقلي في تلك اللحظة أن اهاجر ثانية وأبدًا.. لكن إليه.. وأغمضت عينيّ في إطمئنان وقد عرفت أني أخيرا قد وجدت الوطن..

20
الخاتمة

إن أصعب جزء من أيَّة رحلة هو فتح الباب، أفتح الباب لمغامرة جديدة، لحب جديد، لفكرة جديدة، وقد تجد يومًا أنك تسير حافي القدمين على شاطئ تحت ستارة من النجوم، تحلم بما قد نتشاركه في تلك الليلة، وكل ليلة..

هل تستطيع أن تجد الباب؟ وهل ستستطيع يدك أن تحتويني..؟ وستحتمل تقلبات طقسي العاصف؟ هل سنستطيع معا أن نتجنب الملل في مغامرة لا تنتهي للعقل، والروح، والجسد؟ هل ستراني كما سأراك؟ لا أرى صورة أخرى للجمال غير صورتك؟ ولن أعشق طلعة غير طلعتك، ولن أهوى ثغرًا غير ثغرك، ولن أحب إلا نظراتك.. هل استعددت للرحلة..؟

أنا سأحضر المشروبات، وأنت أحضر معك جاذبيتك وسحرك الذي غمرني من أول يوم.. سنترك الماضي بكل ما فيه وراءنا، وسنبني معًا قلعتنا، نحميها من شرور هذا العالم.. سنكبر معا، سنتشارك المشاعر والأفكار ورابط جسدي من يدي ويدك، لا ينقطع.. إن كنت جاهزًا للرحلة، فإفتح الباب، وقل مرحبًا..ولكن، أسرع فإنها تمطر..

تمت

رسالتنا في المكتبة العربية للنشر والتوزيع:

نشر كل إنتاج إبداعي بجودة عالية وأفكار أصيلة تعبر عن هويتنا العربية وتاريخنا العريق، حتى لا ينزف الوعي من ثقوب الذاكرة، بأعمال تحترم قيم مجتمعنا ومعتقداته، لا تساعد في نشر العنف أو العنصرية، ترسّخ لمبدأ المساواة والحرية والعدالة، والسعى نحو الارتقاء بالأدب العربي في كافة مجالاته، والوصول به نحو العالمية.